من تراث
السيدة عائشة الباعونية

بَلُّ الصَّـــدَي بِشَرْحِ يَائِيَّةِ الباعُونِيَّةِ

[بقلم عبد الله محمد عكور.]

من تراث السيدة عائشة الباعونية

بَلُّ الصَّـدَيِّ
بِشَرْحِ يَائيَّةِ البَاعُونيَّةِ

سَـعْدُ إنْ جِئْتَ ثَنِيَّاتِ اللُّوَى

بقلم

عبد الله محمد عكور



الأردن
عالم الكتب الحديث
للنشر والتوزيع

الأردن ــ اربد ـ شارع الجامعة ـ بجانب البنك الإسلامي
تلفاكس صلى الله عليه وسلم7272272 ـ 2 ـ 962) الرمز البريدي صلى الله عليه وسلم21110)
صندوق البريد صلى الله عليه وسلم3469)

إهداء

إلى روح الشاعرة البارعة والأديبة الفاضلة
صاحبة الذوق الرفيع والعلم الوسيع
خنساء عصرها وسحبان وقتها
شهيدة المحبة الإلهية وعاشقة الحضرة النبوية
السيدة عائشة بنت يوسف الشهيرة
بـــ "**عائشة الباعونية**"
أم عبد الوهاب
أمطر الله قبرها وابلاً صيباً من رحمته
وأعطاها ما أملت من لطيف محبته ومعرفته
آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضي الله تعالى عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا معهم بمنّك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

وبعد: فإن الذين وفقهم الله تعالى لمدح جناب المصطفى صلى الله عليه وسلم قليل، ذلك أن الله يصطفي من عباده من يشاء، ويزيد في خلقه ما شاء، فمنهم من أعطاه الذكاء المتوقد واللسان الحاد، لكنه لم يصرفه فيما يرضي الله تعالى ورسوله، فبقي ذكاؤه سبةً عليه إلى آخر الدهر، ويوم القيامة هو من المقبوحين، ومنهم من أعطاه الله موهبة الشعر، لكنه لم يستعمله الاستعمال الصحيح، فكان إمام الغاوين، يهيم في كل وادٍ من أودية الضلالة، ويقول ما لا يفعل، وقد كبر مقتاً عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل، ومنهم ومنهم ، أما من شملته الرحمة الإلهية، وجذبته يد اللطف الربانية، فقد أجرى الله على لسانه الشعر، وأعطاه الذكاء المتوقد، ومنحه من العلم ما نور به قلبه، فشاهد بهذا النور مقام النبوة وقربه من الله تعالى، فأنزل الرجال منازلهم، فسخر هذه الموهبة التي زانه الله بها في مدح هذا الجناب العطر، وجسَّد الكلام بصورة في أذن السامع حتى حرك منه الجسم طرباً، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، إذ أن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكماً، ومن هؤلاء القليل الذين زادهم الله من بين خلقة بسطة في العلم وموهبة الشعر والذكاء الحاد، والقلب المتوقد بنور محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ورطب لسانه بذكره، فكان كل ما خرج من فيه عطراً حيث صرفه في الوجهة الصحيحة، فبقي له شعره وعلمه ذكراً عطراً يُذكر به ويترحم عليه إلى آخر الدهر، ويوم القيامة هو مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أقول: إن من بين هؤلاء القليل ﴿ وقليل من عبادي الشكور﴾ شاعرة فاضلة، ومربية فذة، وأديبة عاقلة أريبة، تلكم هي السيدة عائشة بنت القاضي يوسف شهيرة بـــ " عائشة الباعونية" رحمها الله تعالى فإنه بعد أن كتبتُ قصيدتها والتي مطلعها :

سعد إن جئتَ ثنيات اللّوَيْ حيِّ عني الحيَّ من آلِ لؤيْ

كثر إنشادها مِن قِبل إخواننا المنشدين في مجالس الذكر ، والاجتماعات التي يُقرأ فيها مولد النبي وبألحانٍ شجيّة تثير طرب السامعين ، وتُحرك ما كمن في القلوب من الأشواق للجناب النبوي العطر ، لا سيما وأنها قيلت في مدحه صلى الله عليه وسلم وفي إحدى الموالد النبوية قيلت هذه القصيدة فلما أن سمعتها تحرك الجسم طرباً ، وسبَح الفكر في بحر معانيها ، فتحرك الخاطر بقوة لإنشاء شرحٍ لها ،

وخاصة بعد أن أفاض الله تعالى عليّ كرماً بيان معانيها، حتى وكأني كنت في ليلٍ وأخرجت منه إلى ضحوة النهار فجأة ، وتحركت الهمة لذلك ، فعلمت أن ذلك إذن من الله تعالى بالكتابة، فأمسكت القلم ونويت بذلك التقرّب إلى الله تعالى بامتداح الجناب النبوي المكرم المقدس من خلال هذا الشرح، فإن مدحه صلى الله عليه وسلم قصرت دونه أعناق البلغاء والفحول من الشعراء، كيف يستقصي المادحون ثناءً عليه وقد وصفه الله في كتابه العزيز بما يبهر العقول، وزيادة على ذلك أن الله تعالى يمدح ويعطي على قدر ربوبيته، والعبد إنما يمدح بقدْر عبوديته، فأين مدح العبد العاجز الجاهل من مدح رب العالمين، فلو بالغ الأولون والآخرون وأعطاهم الله تعالى صنوف الفصاحة وضروب البلاغة، وأخذوا يمتدحونه طيلة الدنيا لعجزوا عن إيفائه حقه من التعظيم، ولقد أجاد من قال :

أرى كلَّ مدحٍ في النبيِّ مقصّرا وإن بالغَ المُثني عليه وأكثرا
إذا اللهُ أثنى بالذي هو أهلـه عليه فما مقدار ما تمد الورى

ولقد سئل سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يصف لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتريدون الإطناب أم الإيجاز؟ قالوا: أوجز فإن في الإيجاز بلاغة ، فقال: محمدٌ رسولُ الله، والرسول على قدْر المرسِل، ولله درُّ الصرصري حيث قال:

قليلٌ لمدح المصطفى الخطُّ بالذهبْ على فضةٍ في كفِّ أحسنَ مَن كتبْ
وأن تنهضَ الأشرافُ عند سماعـهِ قياماً صفوفاً أو جَثِيّاً على الرُّكبْ

فكلُّ غلوٍ في حقه صلى الله عليه وسلم تقصير ، ولا يبلغ البليغ من الثناء عليه إلا قليلاً من كثير، وكل مدحٍ لجنابه عجزٌ عن إدراك فضائله:

فمبلغ العِلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلق الله كلهم

لكنِ المتأخرون رأوا مدحه بما أفاض الله عليه من الكمالات من أعظم القُرَب وأجلّ الطاعات، وفي التحقيق إن مدحَه من قِبَلِ المادحين إنما هو في الحقيقة مما علّمه ﷺ لأمته، فمن بحر علمه يغترفون، ومن فيض مدده يمتدحون، فالمدح منه وإليه:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الدّيَم
ووا قفون لديه عند حَدِّهـم من نقطة العلْم أو من شكلة الحِكَم

فيسّر الله لي ذلك وسميته : بلُّ الصَّدَي بشرح يائية الباعونية سعدُ إن جئت ثنيات اللوَي .

هذا وإني لم أتعرض في شرحي لها للصور البلاغية فيها إلا ما ندر ، وذلك لأنها تفتقر إلى الذوق الأدبي، فإذا كان القارئ صاحب لغة فإنه سيتذوق ذلك الشعر دون الحاجة إلى من يعرّفه بها، وأما إن لم يكن كذلك فلن يتسنى له معرفة ضروب البلاغة لجهله بها، فإذا ما قلت إن في هذا البيت ضرباً من الاستعارة أو المجاز أو التورية أو الطباق أو الجناس أو الكناية وغير ذلك فإنه لن يعرفها لعدم معرفته بأدوات هذا الفن، لذلك اقتصرتُ على بيان معاني الألفاظ والمعنى العام

للبيت وغير ذلك مما لا بدّ منه، لكن سأتعرّض في هذه المقدمة لشيءٍ من ضروب البلاغة التي سلكتها الشاعرة في قصيدتها هذه بشكل عام :

القصيدة :

تقع القصيدة في مائة بيت وبيت ،وهي من موزون البحر الخفيف، وقد نُظمت في مدح النبي ﷺ وهي ضمن ديوان السيدة الباعونية الذي ما زال مخطوطاً في الورقة الأولى منه ولغاية الورقة السادسة ، وقد حوت القصيدة بعض الصور البلاغية منها:

التصغير : تتسم بعض ألفاظ القصيدة بالتصغير ، وهو كما حدّده بعض علماء اللغة يعبّر عن شيءٍ لطيف، وقد استعملته تعبيراً عما تكنّه من الحب والحنين للمحبوب ، لأن التصغير يوظّف فيما يقال للتحبيب والتقريب فمن ذلك قولها :

في هوى أقمار تمٍّ نصبوا حسنَهم أشراك صيدٍ للفُتَيْ

فكلمة الفُتي هي تصغير فتى ، كما صغرت: الغطاء فصار: الغُطَي، والهوى فأصبح: الهُوي، واللماء فأصبح: اللُّمَي، والمحيّا فأصبح: المُحَي والفِناء فأصبح: الفُنَي والسماء فأصبح: السُّمَي والظبي فأصبح: الظُّبَي والحشا فأصبح: الحُشي والكرى فاصبح:الكُرَي والشذى فأصبح: الشُّذَي والثرى فأصبح: الثُّرَي وغيرها ، وأكثر ما جاءت هذه الألفاظ في نهاية أبياتها مما أكسبها جمالاً لغوياً فوق جمال معانيها.

الحذف: وهو نوعان حرفي وبديعي ، ويقصد بالحذف حذف حرفٍ أو حرفين من بناء الكلمة لدلالة السياق على الحرف المحذوف ، أما شاعرتنا فقد استعملته للضرورة الشعرية ، كقولها :

ولكَم قد ردّ عضواً بعد ما صار مفصولاً وعيناً رأي عَين

فلعمر ي كل حسن قاصر عن حسن جــــد الحسنين

فحذفت حرف النون من آخر العجز وإنما أثبتناه مفصولاً عن الكلمة لبيان الكلمة، وكقولها :

يا حياة الروح يا ريّ الظما يا حبيب اللهِ يا ساقي الحُمَي يا

فحذفت حرفي الياء والألف ، والحُميّا هي الخمرة في اصطلاح شعراء الصوفية المعبر عنه بالعلوم اللدنية التي يهبها الله لمن شاء من عباده .

التوظيف : ويقسم إلى قسمين هما :

أولاً: توظيف الألفاظ والتراكيب صلى الله عليه وسلم أسماء الأعلام والمواقع الجغرافية) وخاصة ما كان منها في الحجاز أو في المدينة المنورة ، لما له من المشاعر والتعامل مع الروح في تحريك ما كمن فيها من الحب والشوق .

ثانياً: اقتدارها على توظيف مناسك الحج إلى رموز ذوقية ، فوظفت هذه الألفاظ والتراكيب على طريقة الشعراء الصوفية لأنهم يعتبرون الحج سفراً روحياً لحبيبهم سبحانه وتعالى ، فهم يضيفون إلى الشعائر والعبادات والمناسك ما يجدونه في

أسرارهم من المواجيد والأحوال والأنوار والأسرار الكامنة فيها ، ولعلّ ذكر أماكن الحج والعمرة في مكة والمشاعر يثير ارتباطاً وجدانياً في نفوس المحبين فمن ذلك قولها :

أظهروا كعبة حسن نحوها حجّتِ الأرواحُ حياً بعد حي
زمزم الحادي وقلبي طائفٌ بحماهم وحطيمي عمــرتَي
والوَفـتا في حبهم ملتزمي ومُقامي فــي فضا ذاك الفُنَي
والصفا حالي ومسعايَ لهم ولتعريفــي بهم ناديت حي

احتواء المحاسن الجسدية: فقد امتدحت السيدة عائشة الباعونية رحمها الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ بوصف بعض محاسن جسمه الشريف ، وقد جاءت هذه الأوصاف في الأحاديث الصحيحة ، فمما ركّزت عليه محاسن وجهه الكريم ﷺ فاقتطعت نور البدر شبيهاً له، وامتدحت قوام جسمه وحسن جبينه واستعذبت لماه وهو ريقه الشريف، واحتشمت في غزلها هذا المدح فيه :

وحبيبي قمـرٌ متّسِــقٌ في سناه الشمس أضحت كالهُبَي
في هوى أقمار تم نصبوا حُســـنَهم أشراكَ صيدٍ للفتَيْ
ولماء الحســـن في وجنته رونـقٌ يـربو علـى ورد الـــربَي
كل درٍّ وعقيقٍ دون مــا حـاز ذاك الثغر من وصفٍ وزِي

الخمرة الصوفية: هو مصطلح درج عليه الشعراء قديماً ، وضمنوه أشعارهم، فكان هذا المصطلح نوعاً من بلاغة الشعر عندهم، إذ يعبرون به عن وصفٍ ما ، فيضفي الشاعر بهذا الوصف مسحة من الجمال على شعره، فتسري هذه المسحة في أذن السامع، أو في عين القارئ، فتهتز أركانه ويفعل به الشعر ما تفعله الخمرة بصاحبها، هذا إن كان كلاً من السامع والقارئ يملك الذوق اللغوي، لأن الذي يمتلك هذا الذوق صاحب صنعة، وصاحب الصنعة خبير بها، لذلك قال تعالى " فاسأل به خبيرا" .

نعم000 إن من البلاغة أن يأتي الشاعر بمصطلحات في شعره يوظفها من أجل إيصال مقصوده إلى أذن السامعين بأحسن أسلوب، ويقدمها إلى غيره بأبهى حلة، فيبقى شعره مناراً لمن بعده، ومن هذه الاصطلاحات التي درج عليها الشعراء الصوفية ذكر الخمرة عندهم، فأطلقوا عليها أسماء مختلفة، وتفننوا بذكر أماكن البيع التي تباع فيه، وذكروا ألفاظ كثيرة منها: الحان: وهو البيت الذي تباع فيه، والخمّار: وهو الرجل الذي يقدمها للشاربين، والصهباء: وهي نوع من الخمر الذي مال لونه إلى الصفرة لشدة صفائه، ولعلّه الذي يؤخذ من العنب، والشرب وتكراره، فالشرب من الكأس مرة يسمى النهل، والشراب لمرة أخرى يسمى العلل، أما الشراب لمرة ثالثة فيسمى الوتر، وغير ذلك مما يراه القارئ في شعر الشعراء.

فالخمرة عند الصوفية مصطلح استعاره شعراؤهم يعبرون به عن معنى معين عندهم، وأكثر ما يأتي هذا المصطلح عند تعبير الشاعر عن شيئين هما: محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ والواردات الإلهية التي ترد على قلب العارفين منهم، أما ورود المحبة على قلوب المحبين فإن لم يكن المحب متمكناً في محبته فقد تجري على لسانه هذه الألفاظ فيعبر عنها بما يجده من لذة هذه المحبة في قلبه، حيث تعمل هذه النشوة فيه كفعل الخمر بشاربها، فأول ما تبدو هذه النشوة بتمايل الجسم طرباً من حلاوتها، فلم تزل بالزيادة حتى يغيب المحب عن حسه بما طرأ عليه من هذا الحال أعني حال المحبة، ففي هذه الغيبة قد يتكلم بما يلام عليه إذ أن سلطان العقل المدبر لهذا الجسم قد انشغل بما هو أقوى من شغله الأول، فقد يتحرك وقد يضطرب وقد يتكلم وقد يصيح وقد وقد00حسب قوة الحال الوارد على القلب، وحسب قوة القلب في تلقي هذا الوارد.

وهذا الحال يسمى عند الصوفية حال الغيبة أو حال الفناء، وقد عبر عنه القرآن في سورة يوسف عند ذكره للنسوة التي رأين جمال سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، وسنتكلم عنه أثناء الكلام على المحبة.

وأما الواردات الإلهية: فهي علوم وهبية يقذفها الله تعالى في قلوب أوليائه من باطن الكتاب والسنة وليس شيئاً خارجاً عنهما، فيعلم ما لم يكن يعلم، فيطلب المزيد من هذه العلوم، فيعبر الشاعر منهم بالكاسات والشرب مرة بعد مرة، والبحور والخمرة الصافية، وغير ذلك مما يرد في أشعارهم، ومقصودهم شيء غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ مما قد ذكرته من المحبة الإلهية والواردات الربانية.

فقد درجت الباعونية في قصيدتها كما درج أسلافها من فحول شعراء الصوفية ، حيث وظف هذا المصطلح قبلها صوفيان هما : عمر بن الفارض والششتري ، أما ابن الفارض فقد عبر عن خمرته ببعض أوصاف الخمرة الحسية ويقصد بها ما ورد على قلبه من محبة الله تعالى، فقد قال في خمريته:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة	سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها	ولولا سناها ما تصورها الوهم
ولو نظر الندمانُ ختمَ إنائها	لأسكرهم من دونها ذلك الختم
يقولون لي صفها فأنت بوصفها	خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى	ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدم كلَّ الكائناتِ حديثُها	قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا: شربت الإثم كلا وإنما	شربت التي في تركها عندي الإثم

فالشاعر عبر هنا بخمرته عن معنى لطيف يقصده وهو محبة الله تعالى، ومحبة الله تعالى قديمة لأنها صفة له وصف بها نفسه، وصفة القديم قديمة، لذلك قال: تقدم كل الكائنات حديثها، فمحبة الله تعالى سابقة لمحبتنا، لذلك وقع السكر بمحبته تعالى قبل خلق العنب التي تصنع منها الخمرة الخبيثة، كما عبر عن ذلك في البيت

الأول، وعبر في البيت قبل الأخير بأن الناس قد اتهموه بالتغني في شعره عن هذه الخمرة الخبيثة، فقد نفى ذلك فقال: كلا، وإنما شربت من الخمرة التي يؤثم المرء بتركها وهي محبة الله تعالى التي تفعل بمن ذاقها أكثر ما تفعله هذه الخمرة المظلمة، فخمرة ابن الفارض ترنم بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ التي خامرت قلبه حتى استهلكته فلذلك سمي بسلطان العاشقين، لأنه أول من وظف هذا المصطلح في شعره بما يعجز عنه غيره من فحول الشعراء، فقد قال في ديوانه ص 139 مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم:

تِـه دلالاً فـأنت أهـلٌ لـذاكا   وتـحكم فالحسن قد أعطاكا
وبما شئت في هواك امتحني   فـاختياري ما كان فيه رضاكا
فـعلى كـل حـالة أنت مـني   بـيَ أولـى إذ لم أكن لولاكا
يحشر العاشقون تحت لـوائي   وجـميع المـلاح تحت لـواكا

فالمحبون لله تعالى ممن وظف هذا المصطلح في شعره يحشرون تحت لواء هذا الشاعر لأنه إمامهم في هذا الشأن، كما يطلق على الجنيد إمام هذه الطائفة لأنه أول من تكلم في هذا العلم، وهكذا كل من تقدم غيره في شيء هو إمام غيره فيه.

وأما راح الششتري فيبدو أنساً في الكاسات يُجلى فينجلي مشهد الحبيب ، فتعمل فيه كما تعمل الخمرة بشاربها ، ويكون ذلك الخمر من يد الشيخ يفيضه عليه مما أفاضه الله من العلوم الوهبية، والمعارف الربانية، فخمرة الششتري هي مدد رباني يأتيه عن طريق المربي، والمربي في طريق القوم إما أن يكون الشيخ الذي يأخذ عليه العهد ويسلك على يديه، ويكون هذا السلوك للمبتدئين في الطريق، وإما أن يكون رسول الله ﷺ وهذا للذين انهوا سيرهم إلى الله تعالى، فيغترفون من بحره عليه الصلاة والسلام:

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

يقول الششتري في ديوانه ص39:

مدامك يا شيخ الحضرة   مـــدام عجيب
وكـل العالـم بـه يبرأ   ممـا يصيب
يا مـن يلمني لا مـلام   حِبي مواصل
اسقني يا ساقي المدام   وامـلا لي الأشاقل
خمـراً تهيج الغـرام   لمن هـو عـاقل
درها عليَّ في السحر   والـوقت خالي

فهي خمرة صافية ناتجة عن الاختلاء والستر عن الناس بذكر الله تعالى في وقت السحر، ذلك الوقت المسمى بوقت التجلي الإلهي، في الثلث الأخير من الليل، حيث يأمر الله تعالى ملكاً من ملائكته فينزل إلى السماء الدنيا، فينادي: ألا هل من مستغفر فيغفر الله له؟؟ ألا هل من تائب فيتوب الله عليه؟؟ ألا هل من داع فيجيبه الله؟؟ فلا يزال يقول: هل هل حتى يطلع الفجر، فيصعد الملك، فهذه أوقات

التعرض لنفحات الله تعالى، فهذه خمرة الششتري هي أنس بذكر الله تعالى، ولعل القاسم المشترك بينهما هو السكر الناتج عن الخمرة ، لذا اصطلح عليه شعراؤهم ، أما خمرة الباعونية فيشع منها الصفاء ، وفيها يتحقق الهناء وهي تعبير عن محبة وتوسل بجناب المصطفى ﷺ:

طربت روحي بسكري بالهوى   وبمن أهوى فنالت سكرتَي
يا حياة الروح يا رِيّ الظـما   يا حبيب الله يا ساقي الحُمَيّ

فخمرة الباعونية هي كخمرة غيرها ممن وظف هذا المصطلح في شعره، لكن خمرتها هنا هي ترنم بذكر المصطفى ﷺ ومدح لما بدا لها من جماله الأقدس الذي فاق نورُه نورَ الشمس، بل إن الشمس أضحت كالهباء في الهواء نسبة لنور بهائه عليه الصلاة والسلام:

وحبيبي قمر متـــــسق   في سناه الشمس أضحت كالهبي

ناظمة القصيدة :

ومن أولئك المادحين لجنابه ﷺ السيدة عائشة الباعونية ، نسبةً لقرية في محافظة عجلون الآن شمال الأردن اسمها باعون ، وهي قرية تشتهر بالأشجار وخاصة الزيتون منها، وأهلها فلاحون يعملون بالزراعة ، قال المقريزي : صلى الله عليه وسلمالسلوك ج4 ق1/ 277) وباعون على اسم راهبة اسمها باعونة كانت تقيم في دير ، فلما أزيل الدير وعُملت القرية مكانه عُرفت به ، فهي عائشة بنت القاضي يوسف بن القاضي احمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد الله بن يحي بن عبد الرحمن المسلماني الشهيرة ب" بنت الباعوني " وكنيتها أم عبد الوهاب ، ولدت على الأرجح في صالحية دمشق سنة 864هـ، يقول الدكتور حسن ربابعة حفظه الله صلى الله عليه وسلم عائشة الباعونية ص45) : درجت في بيت علم وفقه وأدب وقضاء ووجاهة أفادت من بعض حلقاته وهي لم تشبّ عن الطوق بعد، وتنشّقت عبَق العلم في خدرها ، وربما كان بعض أفراد أسرتها أساتذتها الأوائل ، جرياً على سنة التدريس الباعوني ، فجدّها احمد تتلمذ على أخيه إسماعيل الصوفي في صفد، وأخواها محمد واحمد تتلمذا لعمهما البرهان الباعوني ابراهيم ، حفظت القرآن الكريم ولها من العمر ثماني سنين ، وقالت : أهّلني الحقُّ لقراءة كتابه العزيز ومنّ عليّ بحفظه على التمام ولي من العمر ثمانية أعوام ، ثم تنسّكتُ على يد إسماعيل الخوارزمي ثم على يد خليفته يحي الأرموي .

رحلاتها وعلومها : رحلت الباعونية من أجل طلب العلم فسافرت إلى الأزهر ، ثم سافرت إلى مكة والمدينة لمناسك الحج والعمرة ، وزيارة سيدنا رسول الله ﷺ وأنشأت بعض قصائدها هناك عندما تأثرت بقدسية المشاعر المقدسة ، أجيزت بالإفتاء والتدريس، وقد أجمع العارفون على أن الباعونية بين المولَّدين تزيد على الخنساء بين الجاهليين، وهي أعلم نساء القرن العاشر الهجري ، بل قالوا : ربما لم

يقم في تاريخ الإسلام بعد كبار الصحابيات والتابعيات من يشبهها في العلم والفضل والإجادة والتآليف ، وكانت فاضلة الزمان وحليفة الأدب في كل مكان .

وفاتها : يكاد يجمع المؤرخون على أن وفاتها سنة 922هـ ودفنت بأعلى الروضة في دمشق رحمها الله تعالى .

مؤلفاتها : ورد للباعونية مؤلفات كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط ومنها المفقود، فمؤلفاتها المطبوعة هي :

01 بديعية " الفتح المبين في مدح الأمين " وشرحها .
02 مولد النبي صلى الله عليه وسلم .
03 فيض الفضل وجمع الشمل .

المخطوطة :

04 المورد الأهنا في المولد الأسنى , وهو ديوان شعر .
05 در الغائص في بحر المعجزات والخصائص .
06 ديوان عائشة الباعونية .
07 مجموع في كلام السيدة عائشة الباعونية في التصوف .
08 فتوح الضراعة على صاحب الشفاعة .
09 الزبدة في تخميس البردة .
010 تشريف الفكر في نظم فوائد الذكر .
011 فيض الوفا في أسماء المصطفى .
012 الفتح القريب في معراج الحبيب .
013 صِلاتُ السلام في فضل الصلاة والسلام .
014 الإشارات الخفية في المنازل العلية .
015 الملامح الشريفة من الآثار اللطيفة .
016 مدد الودود في مولد المحمود .
017 المنتخب في أصول الرتب .
018 فتح المجيب بمتعلقات قوله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ .
019 كيفيات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .
020 القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع .
021 المعجزات والخصائص النبوية .
022 الفتح الحقي من فيض التلقي .

أهم المراجع التي اعتمدتها في الترجمة ﴿ عائشة الباعونية شاعرة ﴾ لفضيلة الدكتور حسن ربابعة حفظه الله تعالى وأجزل له المثوبة .

هذا وأسأل الله تعالى أن يتغمد الشاعرة الأديبة عائشة الباعونية بواسع رحمته ، وأن ينفع بهذا الشرح إنه أكرم مدعوّ، وهذا أوان الشروع في المقصود ، قالت الشاعرة رحمها الله:

سعدُ إن جئتَ ثنيّاتِ اللُّوَيْ   حَيّ عني الحيَّ من آلِ لُـؤيْ

الثنية : الطريق في الجبل ، الحي: القبيلة .

كان من عادة الشعراء افتتاح قصائدهم بذكر لوازم العشق والحُب من ذكر الأحبة وديارهم ، ومقاساة الأحزان والأشواق ، واصطلام نار الوجد والحُب، وتحمّل مكاره الفراق والصبر على صدود الحبيب ، ويُسَمّون ذلك تشبيباً، ويعدّون ذلك من حُسنِ المطلع لاهتمامهم بشأن العشق ، لذلك قال بعضهم: إن الشعر لا يبدأ بالبسملة والحمدلة ، فابتدأت الشاعرة قصيدتها بقولها: سعدُ ذلك لأنه جرت عادة الشعراء عند مفتتحهم لقصائدهم خاصة الغزلية منها أن يجردوا من أنفسهم شخصاً خيالياً يحاورونه حتى يُلفتوا النظر لحالهم ، وإنما اختارت هذا الاسم بالذات لإظهار سعادتها بما منّ الله تعالى عليها من التوفيق لمدح جناب النبوة ، ولقد أفصحت عن ذلك جلياً في البيت الثامن والثلاثين حيث قالت:

وجبين هلّ سعدي مذ بدا   متسام عن هلالٍ بسُمَيْ

فهي تقول : يا سعادتها ويا هناءها أن ألقى الله تعالَى على لسانها مدح هذا الجناب الأقدس، فسعدٌ إذاً هو الشخصية الخيالية التي ستخاطبه الشاعرة ، فمبدأ كلامها له: يا سعد، وقد حُذفت أداة النداء صلى الله عليه وسلميا) إشارة إلى قرب المخاطَب، وقد استشعرت سعداً هذا قد أخذ أهبته وركب راحلته يريد السفر نحو الأراضي الحجازية قاصداً أشرف الأماكن وأشرف الكائنات ووقفت مودعة ومخاطبة له: إن جئت خلال طريقك ثنيات اللوي من أرض الحجاز، ومعلوم أن هناك أكثر من ثنية في المدينة المنوّرة ومكة المكرمة ، منها ثنية الوداع وهي المنطقة التي استقبل الأنصار منها رسول الله ﷺ عند هجرته، ومنها ثنية كداء وهي الثنية التي عبر منها عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً عام 8 هـ ومنها ثنيات اللوي، فاختارت الشاعرة هذا المكان الذي يعتبر أحدى الأمكنة المقدسة في المدينة المنورة للتعريض بالممدوح والمثنى عليه ألا وهو رسول الله ﷺ وهذا من براعة الاستهلال، حيث يعرف القارئ فحوى القصيدة من ذكر عنوانها، فخطابها لسعد هو ما اعتاده الناس من تبليغ سلامهم لمن يحبونه عند عدم استطاعتهم رؤيته، فقالت: إن جئت المدينة فبلِّغ سلامي رسولَ الله ﷺ نسل لؤي أحد أجداده[1]، وإنما اختارت هذا الاسم

[1] فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ويدعى شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي**000** صلى الله عليه وسلم .

بالذات حتى تختار قافية القصيدة به ، ولم تذكر الشاعرة اسم النبي ﷺ صراحة بل أبقته على تنكيره وذلك من التعظيم والتفخيم لشأن المحبوب .

واجـرِ ذكري فإذا أصغَوا له صِفْ لَـهُمْ مَا قَد جرى مِن مقلتَيْ

جرى الدمع : إذا سال على الخد ، وفي اللفظ تورية بجرى أي بمعنى حصل، مقلتي: مثنى مقلة وهي العين كلها .

تقول الشاعرة مخاطبة سعداً : إذا بلّغت سلامي من طلبتُ منك إبلاغهم ، فلا تبرح مكانك حتى تذكرني عندهم ، والزم ذلك حتى تعرف منهم أنهم سمعوا مقالتك فيّ، فإذا استأنست ذلك منهم فصف لهم بكل أدب واحتشام أن جاريةً بالأعتاب كثيرة الشوق لكم ، فإذا سألوك ما هو دليل محبتها؟ فإن لكل دعوى شهودا ، ولكل حق حقيقة، فقل لهم : إن من علامات المحبة كثرة البكاء على فقد المحبوب، وها هي دموعها الغزار هي خير شاهد على ذلك .

وإنما صنعت الشاعرة ذلك لأن من عادة الأكابر والعظماء أن لا يمتَهَنوا ، فلو فرضنا أن الباب مفتوح لكل طارق ، ولم يكن هناك حُجّاب لما كان هناك من كثير عناء للمحبين، ولم يكن تذلل على أعتاب الأجلاّء والمعظمين ، وانظر مثلاً قول الله تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ صلى الله عليه وسلمالزمر:71) فلما كانت جهنم للسفهاء من الناس فتحت أبوابها كلها على مصاريعها ولم يكن استئذان فدخلوها مهانين، لكن انظر قوله تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ صلى الله عليه وسلمالزمر:73) جاء هنا النص ﴿وفتحت﴾ أي لم تفتح إلا بعد الاستئذان فقد جاء في الحديث ﴿ أنا أول من يقرع باب الجنة ﴾ وما ذاك إلا لأن الجنة غالية الثمن، وجناب الله تعالى مهاب عظيم ﴿ ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ﴾ فمن هنا وجب الاستئذان على العظماء والأكابر إظهاراً لعزتهم وجلالتهم .

وبشرحِ الحالِ فانشُر ما انطوى في سِقامٍ قد طواني أيَّ طَـيْ

الطوي : الشيء المثني ، وطوى الشيء طياً : ضمّ بعضه على بعض ، وهو هنا الأمر المخفي ، أنشر: نشر الشيء إذا عرضه أمام الناس ، سقام: جمع سقم وهو المرض ، طواني : أنحفني وهزلني .

تقول الشاعرة وهي لم تزل مخاطبة سعداً : من خلال شرحك حالي أمامهم سيسألونك، وهذا السؤال طبيعي فلا تجزع ولا تستبطئ الإجابة ، وسؤالهم هو: نريد شاهداً آخر على صحة الدعوى حتى تكون الدعوى شرعية وقانونية فقل لهم: إن الشاهد موجود ألا وهو ما انطوى في هذا المرض وهو ما يسمى عند المحبين بتباريح الهوى، فمنه قلة الطعام الذي سبب لها هزالاً في الجسم حتى يبس الجلد

على العظم، ونتج عنه أيضاً ضعفٌ في القوة الجسدية ، وشحوب في اللون وشرود في الفكر، وتواصل في الدموع حتى أثرا في وجنتَيها ، وكل هذه الأمور الناتجة والمنطوية في مرضي قد سببت لي إرهاقاً نفسياً أتعبني وأضناني حتى كاد يقتلني .

في هَوى أقمار تِمٍّ نَصبوا   حُسنَهُمْ أَشراكَ صيدٍ للفُتَيْ

الهوى : الحب ، قمر تم : القمر إذا كان بدراً ، أشراك : جمع شرَك وهو حبالة الصيد الذي يصطاد بها الصياد ، للفُتَي : هو مصغر فتى، والفتى يذكر ويؤنث، يقال للمذكر؛ فتى وللمؤنث فتاة والمصغر منه: فُتَيَّةٌ ، وهو في اللغة الولد إذا ناهز الاحتلام ذكراً كان أوأنثى مأخوذ من الفتوة وهي القوة، لذا فالفتوة هي مادة القوة عند الإنسان، أما في الاصطلاح فإن الفتى من اشتدت قوته، ونفذت عزمته حتى كسر صنم نفسه بنهيها عن غيها، قال تعالى على لسان قوم نمرود عندما رأوا أصنامهم مكسرة: ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء:59،60) ،فمدحه الله تعالى بالفتوة وهي القوة في الدين، والمقصود بالفُتي هنا؛ نفسها، وإنما حذفت منها تاء التأنيث لأشياء: الأول منها: كما قلنا في المقدمة لاستعمالها الحذف من أواخر الكلم، وهو نوع من البلاغة،والثاني: حتى تحافظ على قافية القصيدة، والثالث: تركت الفتى في طي النكرة تعظيماً وتفخيماً لشأنه، الرابع: محافظة منها على ستر نفسها.

أخذت الشاعرة في تفنيد دعواها ، وأفصحت عن السبب في ما وقعت فيه من الحب والذي سبّب لها كل هذا العناء فقالت: إنني وقعت في حب من أحببت حيث نصبوا لي شركاً وحبالة صيد غيلة وأنا لا أدري ، والحبالة هذه هي من نوع فريد لا يخطر على بال أحد، إنها صورة حسن لبدر تمام لم أر أجمل منه، فما أن رأيت صورته لم أتمالك نفسي إلا وأنا أسير هواه ومحبته، وتعلمون أن طبيعة النفس الإنسانية تعشق الصور الجميلة والقد الرشيق، سيما وأنا ممن رقّت مشاعره وأرهفت أحاسيسه بحيث لا أتمكن من امتلاك نفسي إذا ما سمعتُ صوتاً حسناً أو رأيت صورةً جميلة ، سيما وأنا شاعرة وممن قال الله فيهم: ألم تر أنهم في كل واد يهيمون .

عَرَبٌ في رَبــعِ قلبي نزلوا   وأقاموا في السُّوَيدا مِن حُشَيْ

عرب : أمة من الناس ساميَّة الأصل كان منشؤها في الحجاز ونجد والمقصود هنا هو سيدنا رسول الله ﷺ ربع : ناحية ، السويداء من حشي: حبة القلب .

تقول الشاعرة: إن الأقمار الذين نصبوا حسنهم شَرَكاً حتى وقعت فيه هم عرب، من نسل إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، فقد أبقت الشاعرة الأحبة الذين

عشقتهم في طي التعمية ولم تفصح عنهم بل ما زالت تشير إليهم إشارة ذاكرة بعض أوصافهم؛فتارة تقول أقمار كناية عن الحسن والجمال ، وتارة تقول عرب كناية عن الجنس المنتسب إليه الأحبة، وهؤلاء الأحبة قد نزلوا وحلّوا في ناحية من نواحي قلبها، بل تمكنوا من السكنى في حبة القلب وهذا هو مكان الأحبة من المحبين لا ينزلون بغيره، ومعلوم أن شدة القرب حجاب، فرغم هذا القرب الشديد إلا أنها ما زالت تشكوا ألم البعد .

ومِـنْ عَجَبٍ أنـي أحنُّ إليهم   وأسأل شـوقاً عنهمُ وهُـــــمُ معــــي

وتبكيهم عيني وهم في سـوادها   ويشكو النوى قلبي وهو بين أضلعي

****

أَخذوا عقلي وصبري نَـهبوا   واستباحوا سَلْبَ كَوني مِن يَدَيْ

نهب : أخذ عنوة وقهراً ، استباح ، جعله مباحاً بعد أن كان حراماً ، سلب : انتزع عنوة واستولى عليه .

تقول الشاعرة : إن العرب الذين استوطنوا سويداء القلب وأقاموا في أحشائي قد فعلوا بي الأفاعيل ، فقد كان دخولهم القلب عنوة وقسراً بعد أن أوقعوني في شرَكِ حسنهم وجمالهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد أخذوا العقل مني وجعلوه طوع البنان منهم، واستباحوا أسري بعد أن كنت حرة، فصرت لهم رقيقة وأمة، وبعد هذا لم يبقوا لي صبراً أتوكأ عليه حتى أتسلى به بعد هذه الأحداث المفجعة التي حلت بي.

تشير الشاعرة في هذا البيت إلى أن محبة الله تعالى ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام قد تمكنت من قلبها حتى صارت لا تسمع إلا بالله ولا تبصر إلا بالله ولا إرادة لها مع إرادة الله، وهذا المقام يسمى عند الصوفية بالفناء، وهو غيبة المحب عما سوى محبوبه، وهذا مقام قد تحصل فيه الشطحات، ويجري على ألسنة بعضهم ما قد يشكل على العقول، ولكن العلماء الراسخين في العلم لا ينكرون شيئاً من هذا بعد أن قص الله تعالى علينا بمثله في القرآن الكريم، فقد جاء في سورة يوسف واصفاً حال النسوة عندما رأين جمال سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكبَرْنَهُ وَقطَّعْنَ أَيدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ صلى الله عليه وسلميوسف:31) فلما كنّ بغيبة عن الجمال والتجلي اليوسفي أنكرن على المرأة ما أبدته من المحبة والشغف بجماله عليه الصلاة والسلام حتى تنزلت من كبريائها كزوجة للملك إلى أن راودت شاباً كان مملوكاً لها، وهذا بنظر العقل في غاية الذل، فإن الملوك لا يليق بهم أن يتزوجوا أو ينادموا إلا ما كان من طبقتهم، لكن لما بدا الجمال والحسن الذي لم يكن يتصورنه غبن به عن وجودهن، فانشغل القلب والعقل معاً عن تدبير الجسم بما بدا لهما من هذا الجمال، وأخذت أيدي النسوة والتي كانت

تحمل السكاكين الحادة من أجل قطع الفاكهة المعدة للأكل بقطع الأيدي دونما شعور، وبقيت هذه الغيبة من النسوة حتى انقطع التجلي بمغادرة سيدنا يوسف عليه السلام من حجرة الضيافة، فلما انقطع التجلي وذهب الجمال عدن إلى الحس والإدراك، وعاد العقل والقلب لتدبير الجسم، فرأى النسوة الدماء تنزف من أيديهن دونما شعور بذلك، فقلن عندها: حاش لله ما هذا بشرا، علماً أن سيدنا يوسف عليه السلام قد أوتي شطر الحسن والجمال البشري، وأن سيدنا محمداً ﷺ قد أوتي الجمال البشري كله، لذا يقال لوصف الجمال وحسن الصورة: إنه جمال يوسفي، أي لا مثيل له، فكيف بمن يشهده الله تعالى شاردة أو بارقة من التجلي الإلهي، ألا يصح له أن يصرح بما صرحت به الشاعرة من هذه الاصطلاحات التي جاءت في البيت.

قال بعض أهل العلم والمحبة: يكره أن يقال: دخلوا القلب عنوة، وإنما ينبغي أن يقال: كرماً، وهو كلام صحيح، لكن السياق هنا يقتضي ذلك، لأنها تصف حال المحبة الذي هجمها، فهذا الحال دخل القلب بقول "كن " وبتجلي اسمه تعالى المبدي، فقد أبدى الله تعالى لها حالاً منها بتجلي اسمه المبدئ، وهذا التجلي هو أسرع من قول "كن" قال تعالى: ﴿ وما أَمْرُنا إلاّ واحدةٌ كلمح بالبصر﴾ صلى الله عليه وسلمالقمر:50) فلما أصابها هذا الحال أعني حال المحبةً وقد كان من شدته أنه لم يبق في القلب غير محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ وسرعته أسرع من طرفة العين، كان الوصف الذي رسمته الشاعرة يقتضي أن يقال ما قالته من النهب والسلب والأخذ والاستباحة وغير ذلك، فشبهت الشاعرة صورة وقوع الحال ودخوله القلب بصورةٍ أشبه ما تكون بصورة العرب في الجاهلية حيث كانوا يغير بعضهم على بعض ويستلبوا الماشية والممتلكات ويسترقّوا النساء والأطفال، وذلك تقريب للعقل بتصور هذا الحال وهذا التجلي.

أطْلَقوا دَمعي ولكن قَيَّدوا   بِـهَـواهُمْ عَن سِواهُم أَسْوَدَيْ

أطلق الدمع : أجراه وجعله طليقاً حراً ، أسودي : مثنى أسود وهما حبة العين أي سوادها الذي يبصر به المرء ، وسواد القلب أي حبته ولبه .

تقول الشاعرة: إن هؤلاء القوم الذين استباحوا سلب وجودي من يدي لم يأخذوا دمع عيني ولم يقيدوه بل أبقوه جارياً على الوجنتين، فلم يتوقف جريانه ليلاً ولا نهاراً وإنما الذي قيّدوه هو سواد العين الذي يكون به قوة الإبصار، فلم يعطوه حرية النظر لأي كان، بل قيدوه عن رؤية غيرهم، وفعلوا مثل ذلك بحبة القلب التي هي مركز وجودهم، فقيدوهما بهواهم ومحبتهم ، فلم يعد في القلب غيرهم ولم تعد العين تبصر إلا هم، وهذه حالة رقيقة لا يعلمها إلا من ذاق طعمها ، فإن شأن المحبين أن يتلذذوا بمثل هذا النوع من البكاء ، ويشعرون بغاية الحرية في هذا الأسر والتقييد .

ذبتُ حتى كاد جسمي يخـتفي   عن جليسي فكأنّي رَسْمُ فَيْ

ذاب : انصهر ، والرسم : الأثر ، والفي : الظل .
واصلت الشاعرة رسم صورة حالتها التي حلّت بها بعد أن وقعت أسيرة في شرَك حسنهم وجمالهم ، وأخذوا عقلها وقلبها واستباحوا سلب وجودها ، ومع ذلك لم يبقوا لها صبراً تتوكأ عليه ، وقيّدوا منها حبة العين مركز الإبصار منها فلم تعد ترى غيرهم وكذلك أسروا قلبها وقيّدوا منه الحركة فلم يعد ينبض إلا بمحبتهم ، فكل ذلك سبّب لها ما ستشرحه لنا تالياً قالت: ذاب مني الجسم وانصهر فلم يبق منه إلا صورة الجلد والعظم ، حتى كأن الرائي لي يحسبني شبح إنسان، وعادت الكثافة مني لطافة حتى صرت كالظل، وإنما صرت هكذا لأني منعت الطعام والشراب، فقلّت من الجسم كثافته وتبخرت بفعل حرارة المحبة التي أشعلت في القلب، فتواصلُ الدمع من العين، والتوقف عن الطعام والشراب، وتأثير الأسر والتقييد عمل بالجسم ما جعله يفقد الكثير مما اكتسبه من قبل .

وَسُلُوِّي مِثْلُ صَبري مَيِّتٌ   وغرامي مثلُ جِدِّ الوجدِ حَيْ

السلوّ :النسيان، ويقال أنه ماء ممزوج بنوع من الشجر إذا شربه العاشق شفي مما به من داء، والغرام: هو الحب الذي لا يفارق صاحبه، ومنه الغريم؛ وهو صاحب الدَّيْن يأمره القاضي بلازمة المدين ليل نهار حتى إذا رآه نال شيئاً من المال أخذه منه ليقضي منه دَينه، فالمحب الذي تواصل حبه ليل نهار لا يفارقه أبدا يسمى غريماً، والجِد : ضد الهزل، الوجد: نار المحبة التي أشعلها فراق الحبيب .
إن ما أخبرتكم به لم ينفع معه رقية ولا تعويذة عائذ ، فإن السلوان مني ميت لم يبق فيه حراك، وقد حلّ به مثل ما حلّ بالصبر، فالصبر فُقد بعد ما استباح العرب كوني، وأما الغرام فلم يزل تشتعل فيه الحرارة الملتهبة حتى صار الأمر عندي جد خطير .

وجُنوبي قد تجافتْ مَضْجَعي   وَجُفُوني قـد تـجافاها الكـُـرَيْ

================================

الجُنوب: جمع جنب وهو شق الإنسان ، تجافت : هجرت ، والجفون : جمع جفن وهو غطاء العين الذي يغلقه المرء عند النوم ، الكري : مصغر كرى وهو النوم .
تقول: إن ما حصل لي نتيجة ما ذكرت من أخذ العقل مني وسلب الفؤاد ، وكذلك تواصل جريان الدمع ، وذوبان اللحم الذي به المرء يكتسب جمالاً ويعطيه الطاقة على الحركة هو هجران النوم، فلم أستطع أن أضع جنبي على الأرض ، وهذا هو شأن المحبين فلا ينامون لأن حرارة الشوق إلى اللقاء قد أذهبت عنهم ما يجدونه من ميل وخلود إلى الراحة، فكيف يستطيع المحب أن يضع جنبه على

الأرض دون وصال الحبيب، وكذلك عيوني سُلبت النوم فلم تعد تذق طعمه بما ابتليت به من تواصل دمعها.

وعَذولي ضَلَّ إذْ ظَلَّ علَى شَغَفي يَلحى ويَخْطي الرُّشْدَ غَيْ

===================================

العذول : اللائم ، ضل: سار في طريق مغاير للطريق السوي ، ظل: بقي ، شغفي: الحب الذي وصل شغاف القلب ، يلحى : يلوم ، الغي : الضلالة .

الواو من قولها: وعذولي هنا إما عاطفة أو استئنافية، أي زيادة على ما أخبرت في البيت السابق من قولها: ذبتُ استأنفت الكلام في البيت الذي يليه بقولها: وكذلك سلوي 000 وفي البيت الذي بعده قالت: وكذلك جنوبي00 وجفوني 00 لذلك استأنفت الكلام هنا فقالت: زيادة على ما أخبرت بها في الأبيات السابقة من توالي هذه المصائب علي هو أن العاذلين قالوا كذا وكذا وهو ما ستخبر عنه هنا، فانتقلت الشاعرة إلى شيء آخر، وهذا الشيء كثيراً ما يتعرض له المحبون ، ألا وهو كلام الناس بحقهم، ولم يكن نصيب شاعرتنا بأقل حظاً من غيرها ، فقد تعرضت لموجة عنيفة من اللوم الذي وجهه إليها الحسدة والجاهلون الذين لم يعرفوا حالها ، ولم يذوقوا طعم الحب، فلو تركوا الحسد لم يحصل منهم ما حصل ، ولو أنهم علموا بحالها أو ذاقوا طعم الحب لعذروها فيما هي عليه فقالت: إن العاذل سلك طريقاً مغايراً للحقيقة حيث بقي على لومه لي بسبب حبي الشديد الذي اخترق شغاف قلبي ، والمحب في شرع أهل الهوى معذور فيما يتكلم به أو يتصرفه لأن ما يعمله أو يتكلم به إنما هو بلسان العشق والغرام لا بلسان العقل ، فالعاذل جاهل وضال لإنكاره على المحبين .

وقد لا يكون حسدة ولا منكرون فعلاً، وقد يعبر عن النفس والشيطان بالحسدة، لأنهما لا يأمران إلا بمنكر، إن النفس لأمّارة بالسوء ، وقد قال الله تعالى حاكياً عن الشيطان الأكبر الذي أخرج الله تعالى أبانا آدم من الجنة بسببه " فبعزتك لأغوينهم أجمعين" فلا يستقيم أمر هؤلاء الحسدة ولا يقر لهم قرار إلا بصرف المحب عن محبوبه.

هو أَعـمَى وَبأُذْني صَمَمٌ عن أباطيلِ جَلاها مِنـهُ عِـيْ
خَلِّهِ في الجهلِ يفعلْ ما يشا سوفَ تدري حينَ يَنـزاحُ الغُطَيْ

==============================

الصمم: فقدان السمع، الأباطيل جمع باطل وهو ضد الحق ، جل: أظهر، العِي: الجهالة ، خله ، اتركه وشأنه ، ينـزاح : يزول ، الغُطي : مصغر غطاء : وهو ما يستر به

صوّرت الشاعرة حالها مع هذا المنكر الحسود الذي لم يذق طعم الحب لقساوة قلبه، فقالت: إني ابتليت بمنكر فقد حاسة البصر فلم تعد له قدرة على الإبصار، وأنا ابتليت بفقد حاسة السمع فلم تعد لي القدرة على سماع ما يقول ، فهذا العاذل الذي

تعرض لي بالعتاب واللوم هو أعمى ولكن عن طريق الحق فلم يعد يبصرها، فهو متماد في غيه وضلالته فلم يتوقف عن الأباطيل من الكلام الذي أظهرها جهله بحالي وحال المحبين أمثالي ، وأنا لم أعد أسمع ما يدور حولي من إنكاره عليّ لأني سُلبتُ وجودي فلم يبق لي مني نصيب، لذلك خلّه واتركه في جهالته يفعل الذي يريد ويقول ما يشاء ، ويكفيه عاراً أنه جاهل، فسوف تدري حين تظهر الحقيقة أني على حق وغيري من اللائمين في ضلالة عمياء وجهالة جهلاء ، ولكن لا تظهر له الحقيقة إلا بطريقين:

الأولى: أن يذوق ما ذقته من المحبة، عندها يعذرني في محبتي، لأن المحب معذور.

الثاني: عند الموت، فعنده تظهر الحقيقة التي لا لبس فيها، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كُنْتَ في مِن هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصُرَكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ﴾ صلى الله عليه وسلمسورة ق: 22).

قالَ لي الآسي وقد شفّ الضّنى وتمـادى الداءُ مِن فَرطِ الهُوَيْ
لا شِفا إلا بِترياقِ اللقـــا أو بِرشفِ الشَّهدِ مِن ذاكَ اللُّمَيْ
==========================

الآسي : الطبيب ، شف : الثوب رقّ حتى لم يحجب ما وراءه ، وشفّ الجسم أي نَحُلَ ورقّ حتى لم يبق منه غير الجلد والعظم، الضنى: المرض الذي طال زمنه، تمادى : أبطأ ، فرط الهوي ، الإفراط هو الزيادة عن الحد ، والهوي مصغر هوى وهو من مسميات الحب .الشفاء : البرء من العلة ، والترياق: الزيت المعتق حيث كان الناس قديماً يعتقون زيت الزيتون لأنه يخرج من شجرة مباركة وتعتيقه يكون بوضعه في جرار الفخار ، ثم يضعون هذه الجرار في آبار الماء وهو مكان مظلم رطب بارد لمدة أربعين سنة متواصلة ، فإذا أخرجوه سمي ترياقاً لأنهم كانوا يسقون منه اللديغ صلى الله عليه وسلم وهو من لدغته حية أو عقرب) فمجرد شربه منه يبرأ من ساعته ، لذا هو دواء نادر عزيز غالي الثمن شديد الفعالية ، والرشف : هو المص ، والشهد : هو عسل النحل الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِ شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنّاس ﴾ النحل: 69 ،واللمى : هو الريق أو ما يسمى بالمصطلح الحديث اللُّعاب ، ويكون ناتجاً عن إفرازات الغدة اللعابية في الإنسان ومركزها أسفل اللسان، وأصل الكلمة هو سمرة الشفة ولكن سمي اللعاب بها لأنها طريقه فلذا سمي ببعض لوازمه .

تقول الشاعرة : إن قومي استدعوا لي الطبيب لما رأوا ما بي من داء وقد عزّ شفاؤه وطال زمنه ، فقال الطبيب ــ وقد وقف على العلة ــ : ليس بها من داء جسدي ناتج عن خلل في جسدها إنما هو الحب الشديد المتزامن في القلب ، فلما طال زمنه وعتت شدته سبّب لها هذا الذي بها ، فلما وقف الطبيب على

العلة وشخّص المرض هان الأمر على أهلها فسألوا الطبيب وما هو الدواء ؟؟؟ فأجاب : أنه لن يشفيها من دائها هذا إلا أمران لا ثالث لهما :
الأول : أن تسقوها الترياق ، والثاني : أن تسقوها العسل أيهما توفر لن يقوم معه داء أبدا ، فقالوا : إن الأمر هين ، فالترياق موجود والعسل موجود ، فقال الطبيب: إن الأمر أبعد مما تظنون ، وهو غير ما ذهبت إليه أذهانكم ، إن ترياقها الذي توقف عليه شفاؤها وسبب سعادتها بخلاصها مما هي فيه هو وصال الحبيب الذي عشقته ووقعت في شَرَكِ جماله ورشف ريقه، فهذا الذي يبرؤها لا غير ، وهذا ما عبر عنه الطبيب بترياق الهوى، فترياق اللديغ هو الزيت المعتّق ، ولكن ترياق المحب هو اللقاء الذي لا بُعد فيه ولا يعتريه جفاء ، فهو وصالٌ دائم ، وكنّى الطبيب بقوله: أو برشف الشهد من ذاك اللمي حتى يبقي السر بينها وبين حبيبها مكتوماً إلا أنه أشار إليه إشارة حتى يبرئ ذمتها أمام أهلها حتى لا تُتهم وغيرة منه على سرها أن يبتذل، شأنها في ذلك شأن المحبين، لأن المحب غيور لا يريد أن يطّلع على سره أحد، وقد عبّر الطبيب بقوله: أو برشف الشهد من ذاك اللمي، لأن الأحبة إذا التقوا بعد هجر أو غربة فإن أول ما يفعلونه هو المعانقة ، ووضع الفم على الفم ورشف ريق بعضهم البعض والذي هو عندهم بمنزلة الشهد بل هو أعظم وأطيب، وهو عندهم قمة اللقاء، وهذا المعنى ممتنع بحق الشاعرة لأنها أحبت شخصية لا يليق أن يقال هذا لمثله ألا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كنّى عن هذا بما هو من بعض لوازمه، فأبقاه معمّى على غير أبناء الجنس ، فالعلاقة بينهما هي: أنها تريد وصال الحبيب صلى الله عليه وسلم بشهود سره بروحها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وهي إنما لم تزل في دار الدنيا، فيكون شهود سر الحبيب بقلبها أقرب من رشف اللمى من أفواه المحبين بعضهم البعض .
وهذه صورة جمالية ذوقية من الشاعرة برهنت على قدرتها من خلال هذين البيتين على تجسيم الخيال وتجسيد الحب بصورة وكأنها حقيقة ملموسة يلمسها السامع والقارئ على حدٍ سواء ، فأهلها لم يستدعوا الطبيب فعلاٍ، ولم يكن هناك حوار ولا حصل شيء من هذا في الحقيقة، وإنما هو تصوير فني بديع من الشاعرة برسم هذه الصورة وتجسيد الخيال في أذن السامع بما أوردته من شِعرها كنّت به لتعبر من خلال هذا عن مدى محبتها للنبي عليه الصلاة والسلام، طالبة منه الشفاعة يوم تنفع الشفاعة كما قال الشافعي رضي الله عنه:

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة

وكما قال الله تعالى على لسان أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ صلى الله عليه وسلمالشعراء:100) هذا في حق الشافعين من غير الأنبياء فكيف بشفاعة النبي ﷺ ؟!! هل تغادر شقاء أبدا ؟!!

آهِ وَاحرّ لـهيبي في الـهَوى وبغَيرِ الوصْلِ ما لِي قَطُّ رِيْ

==========================

آه : تقال للتوجع من ألم شديد، واحرّ : ما أحر وتقال لشدة التعجب من الأمر، وتقال للنداء أيضاً كقول العربية : وامعتصماه ، لهيبي : اشتعال نـار المحبـة فـي القلب، رِي : بكسر الراء : هو الارتواء.

لما سمعت الشاعرة قول الطبيب وقد وقف على موطن الداء والدواء وعرف ما بها من علة وقد كانت من قبل ساترة لحالها، صاحت آهِ ما أشدَّ حرارة الحب الذي أعاني ويا طول مرضي!!! فإني لن أشفى إلا بما قاله الطبيب من وصال الأحبة، فإني ظمآنة لذلك أشد الظمأ، ولن يروي غليلي وعطشي إلا ذاك ، وبغير الوصال لن يزول لي عطش أبدا، وكنّت بالعطش عن بعد الحبيب وبقاء الحب ملتهباً ، فهي بمنزلة الظمآن الذي بقي في الصحراء الملتهبة ولم يجد من يسقيه شربة ماء ، وكنّت بالري عن وصال الحبيب ، فإن الشوق لن يزول إلا باللقاء، كما أن العطش لن يزول إلا بالشرب .

يا تُرى هل تُسعِفوني بالمنى قبلَ مَوتي وَأَرى ذاك الـمُحَيْ

==========================

يا ترى: لا أدري ، أسعف : عاجل بالدواء، والإسعاف: الإعانة ، المحيّ: الوجه .

بلغ الحب من الشاعرة مبلغاً عظيماً حتى اضطرها للتذلل على أعتاب الحبيب، وناجته بلهجة المتلهف المتحسر على فقد عزيز: فتساءلت: لا أدري هل تشفقون لحالي وترحموني بإعانتي على تحقيق أمنيتي قبل الرحيل بالوصال ورؤية تلك الطلعة البهية ، أم سأبقى معذبة في حجاب البعد ؟؟؟

ما قَلَوْني لا وَلكنْ قد شَـوَوا بالجفا والصَّدِّ قلبي أَيَّ شَيْ

======================================

قلوني: من القلي بالمقلاة على النار وفيه تورية بقلوني بمعنى جفوني أو أبغضوني، شووا : شوى اللحم أنضج بمباشرته النار ، الجفا : الصد والإعراض .

تقول الشاعرة معزية نفسها: إن الأحبة الذين وقعت في شَرَك حسنهم وجمالهم وقابلوني بالصد والإعراض حتى بلغ بي الحال الذي أراه ما جفوني ولا أبغضوني، ولكن هذه عادة العظماء ، حيث يحتجبون بحجاب العزة والعظمة والجلال حتى يمتاز المدّعون من الصادقين، ومن اختبارهم لي أنهم بهذا الذي نسميه إعراضاً قد شووا قلبي بنار الشوق حتى احترق، ومع هذا لم ولن أترك محبتهم ووِدادهم مهما بلغ بي الحال فليفعلوا بي ما شاءوا ، فإن من يدعي المحبة لا بد له من الامتحان حتى تتبين صحة الدعوى، ألا ترى إلى من ادعى الإيمان كيف امتحنه الله جل وعز ﴿ أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكوا أَنْ يَقولوا آمَنّا وهُمْ

لا يُفْتَنون ﴾ العنكبوت:2 وهذا الامتحان حتى يميز الله الكاذب من الصادق، فلذلك ورد على لسان بعض الأولياء أن الله تعالى خاطبه في سره أن الناس كلهم قد ادعوا محبتي، فلما خلقت الدنيا هرب مني تسعة أعشارهم، فلما خلقت الجنة هرب مني تسعة أعشار العشر، فسلطت عليهم البلاء فهرب تسعة أعشار الباقين، فبقي واحد من كل ألف وهو الصادقون، لذلك أشارت الشاعرة أنها ثابتة على محبتهم لن يزعزعها شيء وهذا شأن الصادقين، وبرهانها على صدقها أنها رغم البلاء والصدود والإعراض ما تركت محبتهم، ولا حادت عن بابهم، وهذا وحده كافياً ليدل على صدق الطلب:

وحقك لو أفنيتَ قلبي صبابةً　　لكنتَ على هذا حبيباً إلى قلبي.

*****

وَبدمعٍ عَندَمي ٍ أثبتوا　　أَنَّ قلبي عِندَهُمْ لا عِندَ مَـــيْ

=======================

العَندَم: صبغ يؤخذ من شجر أحمر اللون ، وقال غيره : هو دم الغزال يخلط بلحاء الشجر يطبخان جميعاً حتى ينعقدا فتختضب به الجواري وهو مشهور عند أهل البحرين ، مي : اسم مستعار عند الشعراء يرمزون به إلى معنى عندهم ، وفي البيت جناس صلى الله عليه وسلم وهو اتحاد الكلمة في اللفظ واختلاف في المعنى) وهما عندمي وعند مي ، فالأولى صبغ أحمر والثانية اسم علم مؤنث .

تقول الشاعرة : إن الأحبة الذين جفوني قد سببوا لي البكاء الدائم، ونتج عن هذا البكاء تواصل الدموع حتى نضبت العين ولم يبق بها دمع، ومع ذلك لم تتوقف عن الجريان، فلما استمر البكاء وانقطع الدمع ولم تجد العين ما تجود به أرسلت الدم مكان الدمع، فصار تواصل نزول الدم على وجنتيّ صبغاً أحمر كالعندم صبغهما، حتى ظن من لم يدر بحالي أني صبغت وجهي بالعندم المعروف عند العرب والذي كانت تصطبغ به الجواري ، فلما رأيت هذا الصبغ أشفقت على نفسي وعلمت بأني تالفة في مرضي هذا فأرسلت الأنين المنبعث من القلب والمصحوب بالمرارة والحرارة، أما المرارة فمن خوفي أن يقضى أجلي وأنا فيما أنا فيه من عذاب وصدود الأحبة، وأما الحرارة فهي من تواصل الدم المنسكب على وجهي بعد أن لم يبق في العين دموع، فهذا الأنين هو عندهم ومن أجلهم وبسببهم لا بسبب آخر .

أَظهروا كعتبةَ حُسنٍ نحوَهـا　　حَجّتِ الأرواحُ حيّاً بعتدَ حَيْ

=====================

الكعبة: في اللغة الشيء المرتفع، وفي الاصطلاح بيت الله الحرام الذي ببكة، حجت: الحج في اللغة القصد وفي الاصطلاح قصد البيت الحرام بنية النسك

والتقرب إلى الله تعالى في وقت معين من السنة، الحي: القبيلة وفيه تورية بالحي ضد الميت .
بدأت الشاعرة تنحى منحىً آخر في شعرها وهو ما قلناه في المقدمة من توظيف الأماكن للتعبير عن معنى يقصده الشاعر ، وهو من أنواع البلاغة عند العرب، وليس بوسع كل شاعر أن يأتي بمثل هذا الأمر ، فقالت: إن الأحبة أظهروا للمحبين جمالهم وحسنهم ودلّوا به عليهم، وهذا الجمال والحسن البارع الذي لم يقم في الوجود مثله كان قبلة الأرواح، فكما أن الكعبة هي قبلة الأشباح والأجساد لا يصح الطواف إلا بها ولا التوجه في الصلاة إلا إليها فكذلك هذا الجمال هو قبلة الأرواح، فبهذا الجمال طاف المحبون وحوله حط رحالهم السائرون، فكل محب لا بد له من الطواف والتمسح بهذا الجمال، مهما كثروا ومهما تباعدت أزمانهم، فالمحبون كثار والقبلة واحدة .

زمزَمَ الحادي وقلبي طائفٌ بِحِمَاهُمْ وحطيمي عُمرتَيْ

==========================

زمزم هي ماء زمزم التي جعلها الله تعالى سقيا لسيدنا إسماعيل وأمّنا هاجر عليهما السلام، وزمزمَ: فعل ماضي وهو صوت الحادي أي الرجل حسن الصوت كان يغني للإبل أثناء سيرها حتى تنسى ما يحصل لها من التعب، والطواف: هو الدوران حول الشيء، والحمى: الحي، والحطيم: هو فتحا حجر إسماعيل عليه السلام، والعمرة: مطلق الزيارة وفي الاصطلاح قصد البيت الحرام للنسك في غير أيام الحج .
تقول الشاعرة : إن الحادي رفع صوته بالإنشاد في مجلس الذكر على طريقة الصوفية، ومعلوم أن الصوفية لهم ذوق بالإنشاد ولهم فيه ألحان شجية لم تكن لغيرهم ، فسرحت الروح بمعاني القصيدة التي أنشدت ، وأفاض الله تعالى على روحي من المواهب والمواجيد ، وجالت روحي في الملكوت الأعلى، وأشهدها الله تعالى بارقة من تجلياته، فطافت بهذا الجمال الذي هو كما قلنا قبلة الأرواح ، وهذا ما يسمى عند الصوفية بسفر القلوب إلى حضرة علاّم الغيوب، ففي الحقيقة ليس بينك وبين الله مسافة تقطعها رحلتك، وإنما السفر المقصود هنا السفر المعنوي وهو سفر الروح وجولانها في الملكوت الأعلى، وما يفيض الله تعالى عليها من اللطائف والمعارف والأحوال، وقولها حطيمي عمرتَيْ: فالحطيم هو مكان في الكعبة وهي قبلة الأشباح ، وسمي الحطيم حطيماً لأن الله يحطم الذنوب عنده ، فما من مسلم وقف في ذلك المكان ودعا الله تعالى متذللاً صادقاً إلا وعاد نظيفاً من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فالشاعرة كنّت بهذه الأمكنة وقصدها شيء آخر ألا وهو الطواف بجمال الحبيب حيث حطم بهذه الزيارة كل ما سوى جمال محبوبها ، أخذاً من المعنى الإشاري للآية الشريفة ﴿ إنَّ الملوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ النمل: 34 فإذا دخل نور محبة الله تعالى قلب

عبد أزال ما سواه من الأغيار، والأغيار جمع غير مأخوذة من قوله تعالى ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ صلى الله عليه وسلمالزمر:64) فكل قاطع عن الله يسمى في اصطلاح الصوفية غيراً، فمحبة الدنيا غير ، ومحبة الجاه والمال والمنصب والنساء غير ، فهذه القواطع لا وجود لها في القلب إذا استُهلك القلب بالذكر ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ صلى الله عليه وسلمالرعد: 28) وقولها عمرتَي، مثنى عمرة ، فالعمرة الأولى هو زيارة الروح جمال محبوبها والتمتع بشهود جماله، وأما العمرة الثانية فهي قطع الأغيار عن القلب، فيبقى سليماً لا يوجد فيه سوى محبة الحبيب التي لا تقبل الشركة من غيرها، وهذه المحبة التي تنفع صاحبها يوم التناد حيث قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ صلى الله عليه وسلمالشعراء:88، 89) .وإنما استعملت الشاعرة اصطلاح العمرة في هذا البيت لأن التجلي لا زمان له معين،كما أن العمرة لا زمن لها معين.

وَالوَفا في حُبِّهِمْ مُلْتَزَمي ومُقامي في فَضا ذاكَ الفُنَيْ

========================

الملتزم: ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، وسمي بذلك لأن النبي ﷺ التزمه في حجه وعمرته، وهو أن تلصق صدرك وخدك بجدار الكعبة في هذا المكان وتدعو الله، والمقام: هو حجرٌ كان يقف عليه أبونا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما أمره الله تعالى برفع القواعد من البيت وقد أنزل الله فيه قرآناً ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ صلى الله عليه وسلمآل عمران: 97) فمن الآيات التي كانت فيه أنه يرتفع إذا ارتفع البنيان، وقد لان تحت قدمه عليه الصلاة والسلام حتى أثرت فيه وكأنه طينة لينة ، وما زال أثر القدمين الشريفتين موجوداً إلى الآن ، الفُنَي : مصغر فِناء وهو ما اتسع من الأرض أمام المنزل .

واصلت الشاعرة توظيف الأماكن والمشاعر المقدسة في شِعرها فقالت: إنني ألتزم بمحبتهم ولن أفارقها ما عشت ، ومن المحبة وقوفي عند أمرهم ونهيهم لأن الحبيب يقول **﴿ ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه[2]﴾** لذلك لن أبرح العمل لأنه مما يقرب إلى الحبيب، وشأني في ذلك شأن العبد الذي حج أو اعتمر والتزم الكعبة، فما دام لم يبرح مقامه هذا يسمى ملتزماً ، فإذا فارق ذلك لا يسمى ملتزماً، ومقامي وإقامتي إلى الأبد في ذلك الحي وذلك الفِناء، كمن أكمل طوافه وبادر إلى المقام ليصلي سنة الطواف، فما زال يصلي يسمى قائماً لقوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ صلى الله عليه وسلمالبقرة: 12) والفناء المقصود هنا هو العمل بمقتضى الكتاب والسنة، والدوام على حب الحبيب.

---

[2] رواه البخاري **2348/5** .

والصفا حَالي وَمَسعايَ لهُمْ   وَلتَعريفي بِهِمْ نادَيتُ حَي

==========================

الصفا: جبل صغير بجانب البيت الحرام ، وهو الآن ضمن مساحة الحرم المكي ويُبدأ منه في السعي ، والمسعى ، هو المسافة ما بين الصفا والمروة ، ولتعريفي: مأخوذة من عرفات وهو ساحة الوقوف في الحج يوم التاسع من ذي الحجة .

تقول الشاعرة : إن حالي مع الأحبة هو حال الصفاء الذي لا يعكر ه قاطع، فكما أن الذي يريد السعي بين الصفا والمروة يبدأ بالصفا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ صلى الله عليه وسلمالبقرة: 158) فلذلك لما سعى النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: ﴿أبدأ بما بدأ به الله فبدأ بالصفا [3] ﴾ كذلك إن بدايتي معهم بالمحبة هي الصفاء، لأنني اتلمذت على أيدي سادة هذا حالهم مع الله تعالى وقولها: ومسعاي لهم ليس المراد هنا هو السعي بين الصفا والمروة ، وإنما هو السفر القلبي إلى حضرة الحبيب وترددها بين الجمال والجلال ، فالصفا يمثل الجمال والمروة تمثل الجلال، فأنا لا أبتغي بمحبتي وطاعتي إلا الله تعالى، وقولها: ولتعريفي مأخوذ من عرفات لأن الحج عرفة، ومقصودها إنني أدل على الأحبة وأنادي عليهم بين يدي الله تعالى أن هلموا، وحيّ: اسم فعل بمعنى أقبل، فيقال في الأذان صلى الله عليه وسلم حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح) فأنا لما منّ الله عليّ بمحبته وقربه، وآنسني بجماله ومتّعني بمناجاته ، وكان حالي معه الصفاء، أحببتُ الخير لغيري حتى أكون كاملة الإيمان لقوله ﷺ صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [4]) فقمت بواجب الإرشاد لغيري ودلالتهم على الله، وهذا مقام التربية .

وإذا ما عاد لي عيدي بهم   غير بذل النفسِ ما لي مِن ضُحَيْ

==============================

تقول الشاعرة: إن العيد يكون بعد الوقوف بعرفة، وعيد الأضحى هو العيد الأكبر الذي أعقب ركناً من أركان الإسلام ألا وهو الحج، وسمي بالأضحى لأن الحجاج يتقربون فيه إلى الله تعالى بالأضاحي ، لذلك لما سئل النبي ﷺ أي الحج أفضل؟ قال: ﴿ العجّ والثج [5] ﴾ فالعج هو رفع الصوت بالتلبية والتكبير ، والثج هو إراقة دماء الأضاحي، وسمي العيد عيدا لعودته في كل عام بما يدخل

---

[3] رواه مسلم في صحيحه 888/1.

[4] رواه مسلم في صحيحه 67/1.

[5] رواه الترمذي في سننه 189/3 .

السرور على المسلمين، وأما عيد الشاعرة التي ترجوه فهو عودة السرور عليها بما تؤمله من وصال الحبيب وذاك هو حقيقة العيد عندها فتقول: إذا ما عاد العيد الذي أرجوه وهو وصالهم لي فليس لي من أضحية أتقرب بها إليهم غير نفسي، وهذا أعز شيء عندي، ولكنه رخيص في جانبهم ، فكما أن الحجاج إذا ما منّ الله عليهم بقضاء مناسكهم تقربوا إليه بالأضاحي ، فأنا إذا ما مننتم عليّ بالمراد فلن يكون التقرب إليكم بأقل من الروح .

والمقصود بالنفس هنا أن يبيع المحب نفسه لله تعالى، ويقوم عليها مقام الوكيل يتصرف فيها حسبما أمره الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ صلى الله عليه وسلمالتوبة:111) وحقيقة ذلك أن لا يحب إلا ما أحبه سيده، ولا يعمل إلا ما أقامه فيه سيده، فيفني إرادته بإرادة سيده حتى لا يرى لنفسه وجوداً بوجود الحق تعالى حيث أنه لا يمتلك في الحقيقة نفساً بعد أن باعها لله، وهذا في اصطلاح الصوفية يسمى الفناء.

كُلَّمـــا شَعشَعَ بَرقٌ في الحِمى كاد أن يُروِيَ الرُّبا مِن مَدمَعَيْ
إذا ما هبّتْ صَباً مِن نَحوِهِمِ بلبَلَتْ لُبـي صَـبـابـاتٌ لـــدَيْ

=========================

شعشع: أضاء، الحمى: الديار، الرُّبا: جمع رابية وهي ما ارتفع من الأرض، مدمعّي: عيوني، الصَّبا: الرياح التي كانت تأتي قِبل باب الكعبة وسميت بذلك لأنها عندما تهب كانت وكأنها تصبو إليها، وأما الرياح التي كانت تستدبر الكعبة فتسمى الدبور قال ﷺ ﴿ نُصرتُ بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدبور[6] ﴾ نحوهم: جهتهم بلبلت: هيّجت وحرّكت كفعل البلبل عندما يغرد طرباً ، لبي: قلبي، الصبابات: جمع صبابة وهي الشوق .

إن الشاعرة بعد ما أنهت توظيف الأمكنة والمشاعر المقدسة بدأت توظيف أشياء أخرى منها البرق والصبا وبرد الآصال وغير ذلك فقالت: كلما لمع البرق من جهة ديار الأحبة ذكرني بهم مع أني لست أنساهم وما ينبغي لي ذلك بعد أن سلبوا كوني من يدي، ولكن هذا دأب المحبين إذا ما رأوا الآثار التي لها علاقة بالأحبة أثارت أشواقهم وأشعلت نيران الشوق مع أنها مشتعلة لم تطفأ ، لكن هذه الآثار تفعل بالمحبين فعل الحطب إذا ألقي في النار فيزيد لهبها وحرارتها ، فإذا ما حصل هذا سالت دموعي الغزار مع أنها لم ترقأ حتى كأنها لغزارتها مطر شتاء يروي الأباطح حتى ينبت به الزروع والأزهار والكلأ .

---

[6] رواه مسلم في الصحيح **617/2** .

أما إذا هبت الرياح من تلقاء ديارهم فعلت بي الأفاعيل حيث تتحرك الأشواق والتي بدورها تهزهز البدن طرباً وشوقاً كفعل البلبل حينما يغرد على الأيك، فتارة يغرد وتارة يهتز، وتارة يبكي وتارة يندب الأحبة، لا شغل له إلا ذاك، وهذا دأبه ليل نهار .

هيَّمَتني سَحَراً مُذْ هَينَمَتْ   وغَدت تنقلُ عن ذاك الشُّذَيْ
يا لها اللهُ عَساها ِإنْ سَرتْ   نحوَ ذاكَ الحيِّ عني أنْ تُحَيْ

=====================

هيّم : صيغة مبالغة من هام: وأصل الهيام داء يصيب الإبل فيرميها بالعطش فتمشي في الصحراء حتى إذا رأت السراب ركضت بأقصى سرعة تحسبه ماءً لشدة عطشها ، سحراً : الوقت الذي يسبق الفجر ، الهينمة : الصوت الخفي الذي لا يفهم ، الشُّذَي : تصغير شذى وهو عطر الأزهار ، يا لها الله: دعاء بالخير بمعنى كان الله لها، فإذا كان الله لها لم يفتها شيء من الخير، وهو دعاء جامع لأنواع الخير في الدنيا والآخرة.

تقول الشاعرة : إن رياح الصَّبا التي سرت من قِبل ديار الأحبة أثارت أشواقي وصبابتي، فإنها عندما ثارت وقت السحر وسمعت هينمتها وصوتها وكانت تحمل في طياتها الأريج والروائح العطرية التي كنت أشمها من ديارهم، فلما أن شممتها طار لبي معها لأنها قريبة عهد بهم، وقد سببت لي الهيام بالأحبة فأنا عطشى لرؤيتهم وقد زادت عطشي حتى صار يخّيل لي كل شيء أراه أو أشمه أو أسمعه أنه همُ، فليت هذه الصبا التي سببت لي كل هذا إن مرّت بديارهم أن تبلغ سلامي لهم، وتذكر لهم حالي وتذكرهم بي عسى أن يرحموني .

والهيام هنا منزلة في المحبة يرتقي إليها المحب حتى يغيب عن نفسه، فتتخيل له صورة الحبيب في كل شيء في الوجود، ومن لطيف ما ذكر في هذا المعنى؛ أن قيس ليلى كان سائراً في البيداء فرأى أسداً قد هاجم غزالة فلما صارت في فمه شكه سهماً فوقعت في مقتل من الأسد فأرداه قتيلاً وصاح بأعلى صوته: ليلى00 ليلى وأخذ يقلب الغزالة الميتة وهو يقول: وجه ليلى! عيون ليلى! قدُّ ليلى ! وهو يبكي وينتحب، ثم حفر لها قبراً ودفنها فيه وأقام على القبر ثلاثاً يبكي ويصيح : ليلى00ليلى، وهكذا المحب يرى جمال حبيبه في كل شيء .

أودَتِ الأدواءَ بي في الحُبِّ مِنْ   غيرِ قربي مُنهمُ ما لي دُوَيْ

===============================

أودت: أهلكت، الأدواء جمع داء وهو المرض العضال ، دُوَي : تصغير دواء .

تقول : إن الأمراض الشديدة التي أصابتني بسبب حبهم أهلكتني ، فذهبت مني بالقوة فلم يعد جسمي يقوى على الحركة ، والعين لم تعد تنفعني بالإبصار لعدم توقفها عن البكاء ، فسببت لي طبقة رقيقة بيضاء حجبت البؤبؤ عن الإبصار كما حصل لسيدنا يعقوب ﷺ من طول بكائه على ولده يوسف ﷺ وقال الله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) والعقل ما عاد ينفعني بشيء بعد أن سلبوه قهراً وكذا القلب ، وقل في مثل ذلك جميع أجزاء الجسم، وكل ذلك سببه حبهم وبعدي عنهم لذلك فإنه لا شفاء لي بغير القرب منهم والوصال ، وهذا دوائي وحسب .

الصورة البلاغية في البيت: قولها: الأدواء، وهي جمع داء أي بمعنى تكالب المرض عليها ، فهو تعبير عن شدة المرض وكثرته حتى لم يبق فيها عضواً سليما، وقولها: دوي هو مصغر دواء، أي أن الدواء مهما كانت قوته فلا يقوم مع هذه الأدواء العاتية،فكيف إذا كان الدواء ضعيفاً؟؟ فأغلقت نوافذ الشفاء عندها ولم تبق إلا نافذة اللقاء ووصال الحبيب فهو شفاؤها وأنعم به من دواء.

بانَ عُذري وغَدا مُتَّضِحاً وكمالُ الحُسْنِ إحدى حُجَّتَيْ

============================

بان : ظهر ، اتضح : ظهر جلياً ، الحجة : البرهان .

تقول الشاعرة: بعد هذه الأمور التي شرحتها لكم وهي؛ الأمراض الشديدة والبكاء المستمر الذي سبب نزول الدم بدل الدمع، ونحول الجسم وتناقص القوة الجسدية، وشرود الذهن وغير ذلك مما تسمى بتباريح الهوى ، لعله يكون شافعاً لي عندكم ، ولعله يكون لي عذراً في شرعية الحال الذي ألمّ بي ، فهذا كله حجة وبرهان على ما استشهدت به، ولعلّ البرهان الآخر يكون أقوى في الحجة فإن لي فيه عذراً آخر عندكم ألا وهو جمال الحبيب، فإنه قد أوتي حسناً لا ينبغي لأحد سواه، وجوهر الحُسن فيه لا يقبل الشركة معه من غيره، فإذا كان يوسف قد أوتي شطر الحسن فهام في جماله امرأة العزيز ، والنسوة قطعن أيديهن عندما غبن عن وجودهن بجماله، فالحبيب الذي أحببتُ أوتي الحسن كله ، وأوتي المهابة والجلالة والعظمة، فلا ينبغي لأحد أن يقع فيه مثل ما وقع ليوسف عليه السلام ، فإذا ما رافق الجمالَ عظمةٌ ومهابةٌ كان أبلغ في المحبة والشوق إليه ، والمحب فيه معذور كلّ العذر .

فمن حُجج الشاعرة ما علمته من جماله ﷺ فإن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى قد جعل خلق بدنه الشريف على نسق معجز للبشر لا يدانيه مخلوق في الجمال، وكما قال البوصيري:

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسم

منزهٌ عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

*****

طَربَتْ روحي بسُكْري بالهوى وَبِمَنْ أَهوى فَنالَتْ سَكْرتَيْ

===================================

السكر؛ غياب العقل عن الحس بسبب شرب الخمر، والهوى: من مسميات الحب.

واصلت الشاعرة المرافعة عن نفسها، وأدلت بالحُجج الدامغة لإقناع الخصم المعاند واللائم الجاحد الذيْن لاموها على ما كان منها، فهي تقول: لذلك كله طربت روحي وحُقّ لها أن تطرب ، ونالها من الغيبة في الحبيب مثل ما ينال السكران بمعاقرته الخمرة، وأين السكر من ذاك الحُسن وكما قيل :

ولـمَّـــا أن رأت ذلي إليهــا وحبــي لم يزد إلا انتشارا
واحسب في هـواها الذل عزاً وحقــري فـي محبتها افتخارا
أباحـت وصلـهـا لكن إذا مـا غدونا من مُـدامتـها سُكارى
شــربناهـــا فلما أن تجـــلت نسينا من مُلاحـتها العُقــارا
وصار السكر بعد الوصل محواً وأين السكر من حُسن العذارا
فدعني يا عذولي فـي هواهــا كفى شغفي بمن أهوى اعتذارا
أتعذل فـي هوى ليلى بجهـلٍ لمن فـــي حبها بلغ القصارا

*****

يا لَقَومي سَاعِدُوني واشْهَدوا بِخُلُوصي مِن سُلَيْمَى ورُقَيْ

===================================

سليمى ورقي : أسماء مستعارة كنّت الشاعرة بهما مشيرة إلى مقصدها حتى تبقي سرها محفوظاً غير مبتذل لغير أبناء الجنس على عادة المحبين من الشعراء .

تقول الشاعرة مستغيثة بقومها من المحبين والعشاق الذين يفهمون لغتها ومقصدها أن يساعدوها في بلوغ حاجتها وذلك بدعائهم لها وشفاعتهم عند الأحبة، وحاجتها أن تتخلص من سليمى ورقي، وهما عَلَمان على أشياء حالت دونها من وصولٍ مرامها، وقد جرت عادة الشعراء وخاصة عند الصوفية ذكر مثل هذه الأسماء، وهي بمثابة الألغاز عند العامة لا يعرفها إلا من ذاقها ووصل إليها ، فتارة يعنون بها مقامات ينـزلونها خلال سيرهم ، وتارة يقصدون بها أحوالاً لم تلبث وتفارقهم وهكذا ، والمقصود عند الصوفية هو شهود جمال الحبيب بأسرارهم وأرواحهم، ولا يلتفتون إلى كل قاطع يقطعهم عن الله، أو أي شيء يعيق سيرهم، لذلك استغاثت الشاعرة بقومها ، وقومها هم أشياخها في الطريق الذين يأخذون بيدها ويقولون لها ها أنت وربك فقالت: أريد التخلص من هذه القواطع التي تعيقني في سيري لحضرة خالقي، وهذا ما يسمى عند القوم بالتخلية، وهي تخلي النفس عن مذامها العائقة لها عن السير إلى الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا بمجاهدتها بقطع مألوفاتها ومخالفتها في ما تأمر، لأن النفس أمارة

بالسوء إلا من رحم الله تعالى، فإذا حصلت التخلية أعقبتها التحلية، وهي تحلي النفس بالأخلاق المحمدية، فلا يزال المريد السالك طريق أهل الله يجاهد نفسه بتخليتها من أوصافها المذمومة، فإذا أفلح في إزالة خلق من أخلاقها أبدله بما يضاده من الأخلاق السنية المحمدية وهكذا، فهي تستنجد وتطلب المدد من أشياخها بأن يشفعوا لها عند الله تعالى ويكثروا بالدعاء لها، ويفرغوا عليها مما في بواطنهم من أنوار محرقة للسوى، حتى يقصروا لها المسافة فيقطعوا عنها ما بعد من السير بمدة وجيزة، وذلك أن همم الأشياخ لا تعلق لها بغير الله تعالى، ولا يستمدون إلا منه، فإذا ساعدوها في طلبها يكون قوة السير على همة الشيخ لا على همة المريد.

وَلَكُمْ عِندي يدٌ أَشْكُرُها   طُولَ عُمْري ِإنْ رَنا طرفٌ إلَيْ

==================================

اليد هنا تعني النعمة، رنا: نظر ، الطرف: العين.

ثم استطردت الشاعرة قائلة : إن أنتم نظرتم إليّ بعين عطفكم ورعايتكم وخلصتموني مما أنا فيه من هذه القواطع فسوف تصطنعون عندي معروفاً سأعترف به لكم طول عمري ، فيشكركم قلبي ويثني عليكم لساني .

غَاضَ سُلواني فَهَلْ مِن رَحمة   هِيَ أقصى القصدِ مِنْ آلِ قُصَيْ

==================================

غاض : ذهب ، سلواني : صبري .

تقول الشاعرة : من طول السقم الذي حل بي وما رافقه من حالات نفسية، ولم أحصل على منيتي جعلني أفقد صبري ، وقد يكون فقد الصبر على المصيبة أو على الألم والحالات النفسية المرافقة للمرض، أما عدم الصبر على الحب فهذا غير محتمل عندها لذلك قالت: فهل من رحمة أي هل من سبيل إلى ما أصَّبو إليه، وقصدي هو أغلى ما يتمناه المرء ألا وهو الوصال ونزع الحجاب عن جمال النبي ﷺ نسل قصي بن كلاب .

ما عسى اللائمُ يُبدي في الهَوى   وَجُنُوني فِيهِ إحدَى جَنَّتَيْ

==================================

جُنوني : خلع العقل مني ، جَنّتَي : مثنى جَنة وهي الروضة .

تساءلت الشاعرة قائلة: ما هو الذي من الممكن أن يظهره اللائم تجاه المحب وما يتصرفه خلال سلوكه طريق المحبة ؟؟؟ إن غاية ما بوسعه من اللوم أن يَسِمَني بالجنون وطرح العقل جانباً ، فدعه يقول ما شاء ، فيكفيه جهلاً وحرماناً أنه لم يذق ما ذقته من لذة الحب مع العلم أن قوله أني جُننتُ في محبته هي في حقيقتها جَنة من تلك الجنتين اللتين منحني الله تعالى إياهما في الحب، أما الجنة الأولى؛ فتنعم القلب بحبهم واستئناسه بقربهم في الحياة الدنيا ، وأما الجنة

الأخرى فهي حشري معهم في دار الخلد ومجاورتي إياهم لقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ صلى الله عليه وسلمالنساء:69) وقوله ﷺ ﴿ المرء مع من أحب[7] ﴾ وأنعِم بذلك جَنة ، وهل تنعّم المحبين بغير قربهم من الحبيب ؟؟؟؟!!!!

وَحَبيبي قَمَرٌ مُتّسِقٌ   في سَناهُ الشّمْسُ أضحتْ كالهُبَيْ

===============================

قمر متّسق : بدر تمام ، السنا : النور القوي ، الهبي : تصغير هباء وهي الذرات الصغيرة المتطايرة في حبل الشمس .

تقول الشاعرة مفسرة كون جنونها في الحبيب إحدى جنتيها : إن من طبيعة الإنسان التنعم بكل ما هو جميل، لأن طرق اكتساب اللذات متعدد في الإنسان، منها ما هو من طريق الأكل والشرب ، ومنه ما هو من طريق الشم وانتشاق الروائح العطرية الجذابة ، ومنها ما هو من طريق الأذن كسماع الألحان الشجية ، ومنه ما هو من طريق العين وهو رؤية المناظر الخلاّبة الجميلة ، فالحبيب الذي عشقته لا يضارعه مخلوق جمالاً ، ولا نور أقوى من نوره ، فكل حسنٍ في الوجود إنما هو من نوره مستمد ، فالشمس هي بعض نوره ، بل إن الشمس التي تضيء الدنيا على وسعها وتمد الناس بالحرارة قد أصبحت بالنسبة له كلا شيء، وأين الثرى من طلعة البدر ؟؟!! وذلك طبقاً لما قال عنه تعالى في محكم التنزيل صلى الله عليه وسلم قد جاءكم من الله نور) ويكفي في حسنه صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن له ظل يقع على الأرض، فأين للنور من ظل ؟؟

ذو قَوامٍ قَام عُذري في الهَوى   مُذْ تَبَدّى مِنْ ثَنِيَّاتِ اللُّوَيْ

=========================

قوام : قد صلى الله عليه وسلم وهو شكل الجسم الظاهر) .

بدأت الشاعرة مدح الجناب النبوي الشريف بما آتاه الله من حُسن الصورة مبررة كلامها أن حبها له وتمتعها بجماله هو إحدى جنتيها اللتين منحهما الله تعالى إياها، ومدحها هذا يدل على غزارة علمها بالسيرة النبوية الشريفة، وهو من مقومات العلم الشرعي، إذ كيف يتسنى لمن انتسب إلى النبي ﷺ بدعواه الإسلام ولا يعرف شيئاً من شمائله؟؟ لذلك قالت : ذو قوام أي ذو قد رشيق ولحسن هذا القد صرتُ معذورة في حُبه ﷺ فلقد آتاه الله الحسن كلَّه ، ولقد سلكت الشاعرة بوصف النبي ﷺ طريق الحافظ احمد بن القسطلاني رحمه الله وهو أحد الأشياخ الذين أخذت عنهم العلم ، وهو ما أورده ضمن كتابه المواهب اللدنية، ولقد تتبعتُ الأبيات التي امتدحت فيها الجناب النبوي فوجدتها

[7] رواه مسلم في صحيحه 2032/4 .

جاءت بها مرتبة كما هو في هذا الكتاب، وسأترك العنان للقلم يكتب ما أورده الحافظ القسطلاني في ذلك المجال إلا أني سأسلك فيه سبيل الاختصار .
قلت: إعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى قد جعل خَلْقَ بدنه الشريف على وجهٍ لم يظهر قبله ولا بعده خَلقُ آدمي مثله كما قال البوصيري :

فمبلغُ العلم فيه أنه بشر　　　وأنه خير خلق الله كلهم
منزّهٌ عن شريك في محاسنه　　　فجوهر الحسن فيه غير منقسم

قال القرطبي : لم يظهر لنا تمامُ حسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ [8]فقالت :

وَجَبين هلَّ سَعدي مُذْ بَدى　　　مُتَسام عَنْ هِلالٍ بسُمَيْ
وَلماءِ الحُسْنِ في وَجْنَتِهِ　　　رَونَقٌ يَربو عَلى وَردِ الرُّبَيْ

==============================

الجبين: هو ما علا الحاجبين من وجه الإنسان، السعد: الحظ ، متسام: متعالٍ، الهلال: القمر أول الشهر، بسمي: مصغر سماء، الوجنة: الخد، الرونق: الحسن والجمال، الربي: مصغر ربى وهو ما ارتفع من الأرض.
تقول الشاعرة: إن من جمال النبي وحسنه ﷺ أنه ما وقع بصر أحد عليه إلا أحبه، فإذا حصلت المحبة حصل له كمال الإيمان، فأما وجهه الشريف ﷺ فقد روى الشيخان عن البراء قال: كان ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خُلُقاً [9] وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحسنَ من رسول الله ﷺ كأنّ الشمس تجري في وجهه صلى الله عليه وسلم أي لشدة نوره [10]) وسئل البراء : أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف ؟ فقال : لا بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً ، وعن جابر بن سمرة قال : رأيت رسول الله ﷺ في ليلةِ إضحيان أي مقمرة فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو في عيني أحسن من القمر [11] وعن علي رضي الله عنه أنه نعته ﷺ فقال : لم يكن بالمطهّم ولا المكلثم وكان في وجههِ تدوير ، والمطهّم الكثير السمِن والمكلثم المدوّر الوجه أي لم يكن شديد تدوير الوجه بل في وجهه تدوير قليل [12] وقال أبو هريرة: كان ﷺ أسْيَل الخدين ، والخد الأسيل هو ما فيا استطالة غير مرتفع الوجنة، وأخرج البخاري عن كعب بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ إذا استنار وجهه كأنه قطعة قمر [13] وروى البيهقي عن أبي إسحاق

---

[8] انظر المواهب اللدنية بالمنح المحمدية المقصد الثالث، الفصل الأول .
[9] صحيح مسلم 1819/4.
[10] صحيح ابن حبان 215/14 .
[11] انظر التدوين في أخبار قزوين 93/3 .
[12] سنن الترمذي 599/5.
[13] صحيح البخاري 1305/3.

الهمداني عن امرأةٍ من همدان قالت: حججتُ مع النبي ﷺ فقلتُ لها : شبّهيه قالت : كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعدَه مثله [14] وروى الدارمي وغيره عن أبـي عبيدة قال : قلتُ للربيع بنت معوّذ صفي لـي رسول الله ﷺ قالت : لو رأيتَه لقلتَ : الشمسُ طالعة [15] وروى مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له: صف لنا رسول الله ﷺ فقال : كان أبيض مليح الوجه وكان عليه الصلاة والسلام إذا سُرّ فكأن وجهَه المرآة وكأن الجُدُرَ تُرى في وجهه [16].

تقول الشاعرة : إن هذا الوجه الشريف الذي وصفتُ هو أجمل من القمر ليلة البدر، وماء الحسن فيه له رونق وبهاء لو شبهته بالزهر لقلت أجمل ، ولو شبهته بروضة خضراء غنّاء فيها من كل وردة وزهرة لفاق جماله عليها ، كيف وقد قيل إن الزهر والورد إنما اقتُبس جمالُه منه ﷺ لذا مذ رأيته سعدت برؤيته ، فلن أرى شقاءً بعده إن شاء الله ، لأنه هو القائل: المرء مع من أحب وكما قال الشاعر:

ليته خصني برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

*****

كُـلُّ دُرٍ وَعقيقٍ دونَ مـا حَازَ ذَاكَ الـثَّغرُ مِنْ وَصْفٍ وَزِيْ
وَالـلُّمى أَفديـهِ عَن مَعسولهِ قَصّر الشّـهْدُ ولـم يأتِ بِشَيْ

===============================

در: لؤلؤ وما في معناه، عقيق: حجر أحمر من فصيلة الأحجار الكريمة غالي الثمن يصنع منه الفصوص، الثغر: الفم، الزي: الشكل، اللمى: الريق الشهد: العسل .

في هذين البيتين وصفت الشاعرة فم النبي ﷺ ونبدأ بما وصفه الصحابة رضي الله عنهم لنرى من خلاله جمال التعبير الذي نظمته الشاعرة : عن جابر رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ ضليع الفم [17] وقال ابن أبـي هالة كان النبـي ﷺ يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه يعني لسعة فمه [18] وقد كانت العرب تمدح به لأنه دليل الفصاحة، وقال علي : كان مبلّج الثنايا أو برّاق الثنايا ، وعن ابن عباس: كان النبي ﷺ أفلج الثنيتين إذا تكلم رؤي النور يخرج من بين ثناياه[19] وقال غيره : كان رسول الله ﷺ أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم ، وعن أبـي قرصافة قال : بايعْنا النبي ﷺ أنا وأمي وخالتي فلما رجعنا قالت لي أمي وخالتي : يا بني ما

[14] انظر فتح الباري **573/6** وعزاه إلى تاريخ يعقوب بن سفيان.
[15] سنن الدارمي **44/1** .
[16] صحيح مسلم **1820/4**.
[17] رواه مسلم في صحيحه **1820/4**.
[18] رواه البيهقي في شعب الإيمان **155/2** .
[19] رواه الدارمي في سننه **44/1** .

رأينا مثل هذا الرجل أحسن وجهاً ولا أنقى ثوباً ولا ألين كلاماً ورأينا كأن النور يخرج من فيه .

وأما ريقه الشريف ﷺ : ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يُحب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا يُعطاها قال: أين علي بن أبي طالب ؟ قالوا : هو يشتكي عينيه ، قال : فأرسِلوا إليه ، فأتي به فبصق في عينيه فبرأ حتى كأن لك يكن به وجع [20] ومجّ رسول الله ﷺ في بئر ففاح منها رائحة المسك [21] وبصق في بئر في دار أنس فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها، وكان ﷺ يوم عاشوراء يدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة رضي الله عنها ، فيتفل في أفواههم ويقول للأمهات لا ترضعنهم الليلة فكان ريقه ﷺ يجزيهم .

ودخلت عليه عمرة بنت مسعود وأخواتها يبايعنه فوجدنه يأكل قديداً ، فمضغ لهن قديدة فمضغتها كل واحدة منهن قطعة ، فلقين اللهَ تعالى وما وُجد لأفواههن خُلُوف[22].

وأخرج الطبراني بسند جيد عن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد قالت: كنا عند عتبة أربع نسوة ، ما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبتها ، وما يمس عتبة الطيب ، وهو أطيب ريحاً منا ، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا : ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة ! فقلنا له في ذلك : قال : أخذني الشّرى صلى الله عليه وسلم مرض يصيب الجلد يكون بثورا فيها صديد يسبب حكة) على عهد رسول الله ﷺ فشكوت ذلك إليه فأمرني أن أتجرد فتجردت وقعدت بين يديه ، وألقيت ثوبي على فرجي ، فنفث في يده ثم وضع يده على ظهري وبطني فعبق بي هذا الطيب من يومئذ [23].

هذا لون آخر من ألوان الجمال النبوي ، وخلاصة ذلك أن عتبة مرض بمرض من أنواع التحسس الذي يصيب الجلد فبادر إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الدواء ، فجاء الدواء النبوي فوق ما كان يظن ، حيث نفث رسول الله ﷺ بيديه الشريفتين ثم مسح بهما ظهر عتبة وبطنه فشفي من ساعته ثم غبقه الطيب ، حتى كان إذا مرّ بسكة يعرفون ذلك من أثر الطيب الذي كان يكسو الجدران والهواء فيشمه الناس بعد ساعات .

---

[20] رواه مسلم في صحيحه **1871/4** .

[21] رواه احمد في مسنده **315/4** .

[22] رواه الطبراني في معجمه الكبير **341/24** .

[23] المعجم الكبير للطبراني **133/17** .

هذه بعض أوصاف النبي ﷺ ولنتعرف على وصف الشاعرة له شعراً قالت : إن الدر والعقيق من الأحجار الكريمة غالية الثمن يستعملها الناس للزينة ، فالدر الذي هو اللؤلؤ من أغلى المعادن وهو أعز وأغلى من الذهب ، لذلك جعل الله تعالى بيوت خواص المؤمنين في الجنة منه فقد قال عليه الصلاة والسلام :أُمرتُ أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب [24] والقصب هو اللؤلؤ المنحوت ، والعقيق هو من الأحجار الكريمة الشفافة صافية المعدن والجوهر يصنع منه فصوص الخواتم ، فاللؤلؤ والعقيق لا يساويان شيئاً بالنسبة لجمال ثغره ﷺ وأناقة أسنانه ، فجمال الفم كما وصفه الواصفون أجمل الناس فماً ولبياض أسنانه بريق نور إذا تكلم خرج النور من فمه، فالواصف يعجز عن درك جمالهما صلى الله عليه وسلم أي الفم والسنان) وعلاوة على ذلك فما يخرج من في رسول الله ﷺ من اللمى وهو ريقه الشريف لا يقاس به شيء ، فلو قلت : إنه مثل الشهد حلاوةً لكان الشهد مقصراً حتى عن مجرد التشبيه ، فلذلك قالت: قصّر الشهد ولم يأت بشيء ، أي أن الشهد لا يناسب حتى مجرد التشبيه أن نصف به اللمى الذي يخرج من في رسول الله ﷺ .

وَعبير المسكِ من أنفاسهِ لم يزل يُروي ولم يحك الثُّرَي

================================

العبير : أخلاط من الطيب ، والثري : تصغير ثرى وهو التراب الندي والمراد به تربة المدينة المنورة التي جعل الله تعالى تربتها شفاء وطيباً لمن أراد أن يطّيّب به .

قالت : إن الرائحة العطرية الطيبة التي تفوح من فمه مخالطةً أنفاسَه ﷺ عندما يتكلم لهي أطيب من كل طيب ، بل إن المدينة المنورة عندما حلّ بها رسول الله ﷺ أصبحت طيبة بعد أن كانت يثرب ، فطاب منها كل شيء بعد أن باركها ﷺ بسكناه فيها ، فأين المسك من طيبه ؟! فشتان ما بين الثرى والثريا !!!

ولعمري كل حُسْنٍ في الورى قاصرٌ عن حُسْنِ جدِّ الحسنيْن

================================

ولعمري: من الأقسام التي كان يقسم بها العرب ، الورى : الناس ، قاصر : أقل، الحسني : هما الحسن والحسين أبنا علي بن أبي طالب عليهم السلام ، وحذفت النون من الكلمة للضرورة الشعرية ، وهي أيضاً من أنواع البلاغة عند العرب التي تسمى الحذف .

أقسمت الشاعرة أن جمال المصطفى ﷺ تقاصر دونه أي جمال في الوجود ، وإنما اعتمدت في ذلك على أمرين : أما الأمر الأول فهو ما شاهدته من حسنه

[24] رواه مسلم في صحيحه **1887/4** .

ﷺ خاصة عندما حجت وأنشدت قصيدة في مدحه ﷺ فأكرمها الله برؤيته وشاهدت حسنه وجماله على الصورة التي هو عليها في الحقيقة ، فأصابها ما شرحته لنا في هذه القصيدة من حبه والهيام بجماله ﷺ .
وأما الأمر الثاني : هو ما قرأته في كتب الحديث والخصائص من جماله عليه الصلاة والسلام كما نقله الحفاظ عن الصحابة رضي الله عنهم .

احمدَ الهادي إلى دينِ الهُدَى ببيانٍ مُحكَمٍ من عندِ حَي

==========================

بيان : من أنواع البلاغة والمقصود به القرآن الكريم ، محكم : لا يتطرق إليه أي نقد مهما قلّ ، والحي هو الله تعالى .

لما قالت الشاعرة : جد الحسنين استطردت قائلة: احمد الهادي وهو تفسير لما قبله، ويسمى في اللغة بدل اشتمال ، واحمد من جملة أسمائه ﷺ وهذا الاسم كان معروفاً به في الكتبِ القديمة قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ صلى الله عليه وسلمالصف:6) والهادي من صفاته التي وصفه الله تعالى بها فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾صلى الله عليه وسلم الشورى: 52) فقالت : إن هذه الأوصاف هي من الأوصاف الجسمية التي وصفتُ بها رسول الله ﷺ ولم أتعرض لصفاته الخُلُقية ، والآن سوف أمدحه ببعض ما وصفه الله تعالى بكتابه من صفاته الخلُقية ، فإن خير ما مدحه المادحون هو مدْحُهُ بما مدحه الله تعالى به ، فمن ذلك تسميته بأحمد ، وهي على وزن أفعل لبيان مزيد المدح بحمده ، فهو المحمود بما أفاض الله تعالى عليه من المحامد فمن ذلك :

تسميته ﷺ بأسماء تقتضي الحمد فقد هيّأ الله تعالى من يسميه بأشرف الأسماء فلما وُلد ﷺ سماه جدُّه عبد المطلب محمداً ، فقالوا :لـمَ سميتَه باسم لم يكن معروفاً عند العرب ؟؟؟ قال : رجاء أن يُحمدَ في السماء كما يُحمد في الأرض ، ومن أسمائه ﷺ في الكتب السماوية احمد وهو اسمه الذي سماه الله تعالى في الإنجيل ، ومما أعطاه الله تعالى من مسميات الحمد أن أعطاه سورة الفاتحة وتسمى بسورة الحمد لافتتاحها به ، وقد فرض الله تعالى قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة ، و أمته الحمّادون يحمدون الله تعالى على كل شرف ، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، وله الشفاعة والمقام المحمود الذي لا ينبغي لأحد دونه ، فيحمده عليه أهل الموقف لذلك قال حسان بن ثابت :

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن صفاته ﷺ التي مدحه الله تعالى بها : الهادي وهو من أسماء الله الحسنى وهذا عين المدح والتكريم ، ودينه هو دين الهدى الذي وصفه الله تعالى في

القرآن، فقالت: ببيان محكم من عند حي ، أي إن هذا القرآن الذي شرع الله تعالى فيه دينه وأنزله على قلب رسوله محمد ﷺ هو محكم ، فقد جعل الله تعالى من دلائل نبوته ﷺ الكبرى القرآن وذلك لأنه تحداهم بما فيه من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله فنكلوا عنه وعجزوا ، قال بعض العلماء: إن الذي أورده ﷺ على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لأنه أتى أهلَ البلاغة وأربابَ الفصاحة ورؤساءَ البيان والمتقدمين في اللَّسَن بكلام مفهوم المعنى عندهم فكان عجزهم عنه أعجبَ من عجز مَن شاهد المسيح عند إحياء الموتى ، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا في إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه ، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة ، فدلّ على أن العجز عنه إنما كان ليصير علَماً على رسالته وصحة نبوته ، وهذه حُجة قاطعة وبرهان واضح .

قال محمد بن كعب : حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ وحده في المسجد : يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أموراً لعلّه أن يقبل بعضها ويكف عنا ؟ قالوا : بلى ، فقام عتبة فجلس إلى النبي ﷺ فذكر الحديث فيما قاله له وفيما عرض عليه فقال ﷺ: أقد فرغت أبا الوليد؟ قال : نعم قال : فاسمع مني فقال ﷺ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ صلى الله عليه وسلمفصلت:3) فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلما سمعها عتبة وأنصت لها ألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ فيها إلى السجدة فسجد ﷺ ثم قال : سمعتَ أبا الوليد ؟ قال: سمعتُ قال: فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا : ما وراءك ؟ قال: إني سمعت من هذا الرجل قولاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فو اللهِ إن لكلامه لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر !!![25]

ونـبيٍ مـن قـديمٍ كـم رَوَوا   فـي عُلاهُ مـن حـديثٍ يا بُنَي

=================================

تقول الشاعرة مواصلة ذكر محامده ﷺ اعلم أن هذا النبي الكريم على ربه له من المحامد التي لم تكن لأحد سواه ، فمن ذلك أنه قد جاءتنا أحاديث

[25] رواه البيهقي في شعب الإيمان .

واصفة لنا علاه ورفعة مكانته عند ربه ، وأن هذا المجد ثابتٌ له من قديم الزمن ، فمن ذلك أن إرادة الله تعالى لما تعلقت بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية وآدم لم يكن ، ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، فهو الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الروحي الأكبر لجميع الموجودات ، ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه الشريف وارتباط الروح به انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر، وظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً ،عن العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته[26]

ولبيان الحقيقة المحمدية يقول التقي السبكي: إن الله خلق الأرواح قبل الأجسام، فالإشارة بقوله ﷺ كنت نبياً وآدم لمنجدلٌ في طينته إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقته، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها ، وإنما يعلمها خالقها ومن أمدّه الله بنور إلهي، فحقيقة النبي ﷺ قد آتاها الله وصف النبوة من قبل خلق آدم إذ خلقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت فصار نبياً وكتب اسمه على العرش، وأخبرنا عنه بالرسالة ليُعلِمَ ملائكته وغيرهم كرامته عنده ، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسمه الشريف المتصف بها .[27]

فهذه جملة من الأحاديث التي أشارت إليها الشاعرة بقولها :كم رووا في علاه من حديث ، وقولها : يا بني إشارة منها إلى من هو دونها في العلم، حيث أقامت نفسها منه مقام المعلم من التلميذ.

خيرُ مبعوثٍ محتْ أنوارُهُ بصباحِ الرُّشْدِ عنا ليلَ غَي

==============================

مبعوث: مرسَل من الله تعالى ، محت أنواره: أذهبت شريعته وأزالت، غي: جهالة .

ومن عظيم كرمه ﷺ على خالقه أنه جعله خير مرسل ، ومحى بأنوار رسالته ظلام الشرك والجهالة ، فقد كان الناس يعبدون في الجاهلية أصناماً ينحتونها بأيديهم، وكان القوي فيهم يأكل الضعيف ، وانتشرت فيهم الكهانة ووأد البنات، والنظام الإجتماعي يضعه كبراؤهم حسب أهوائهم وغير ذلك من الضلالات ، وفي الرومان كانوا يعبدون الأحبار والرهبان، وانتشر الظلم وعمّ الجهل، وكانت الحياة من نصيب حفنة من الناس يتحكمون في رقاب العباد ، وفي دولة فارس كانوا يعبدون النار والكواكب ، والظلم فيهم منتشر انتشار النار في الهشيم ، وغير ذلك

[26] رواه ابن حبان في صحيحه **313/14** .

[27] انظر التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرنه وهو ضون فتاوى السبكي **48/1** .

مما لا يحصى، وهكذا بقية دول العالم، فلما بُعث ﷺ أزال تلك الظُّلَم وأخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وسنّ لهم القوانين التشريعية في مختلف المجالات ما عجزت البشرية عن الإتيان بمثلها في إصلاح البشر إلى يومنا هذا .

بدرُ أُفُقِ القُربِ شمسُ الإصطفا   زينـةُ الداريْنِ عين ۞ العالمَين

==============================

واصلت الشاعرة وصف النبي ﷺ ببعض صفاته وما أعطاه الله إياه من المحامد فقالت: هو البدر التمام الذي أزال الله به ظلمات الشرك والجهل ، فكان مثاله في الناس مثال مَن كان في صحراء في ليلة شديدة الظلمة لا يدري أين يتوجه ، وقد أيقن بالهلاك فلم يلبث أن طلع عليه البدر بنوره ، فأزال ما كان حوله من ظلام دامس، وأصبح يمشي في النور الذي لا حرارة فيه تعرضه للأذى ، لذا فهو صاحب الآيات والمعجزات الباهرات التي أويد بها ﷺ حتى صار زينة الوجود وعروس المملكة الربانية ، ومحل نظر الله من الكون في الدنيا والآخرة .

وقولها بدر أفق القرب: إشارة منها إلى انفراده ﷺ عن غيره من العالمين بما خصه الله تعالى من اطلاعه على ملكوته وتقريبه ورفعه إلى أماكن لم يكن بوسع مخلوق بما فيهم الملائكة أن يرتقي إلى تلك الأماكن، كما أن البدر في السماء إذا طلع في الليل ازدان به المكان، وتنور به الظلام، وهو مع ذلك ثابت متألق بنوره في الأفق المرتفع بحيث يستحيل على غيره أن يقوم مقامه، فيقع منه النفع لغيره، وهو لم يزل في علوه وجماله ونوره ما نقص منه شيء.

صاحِبُ الآيِ التي عن بعضِها   قصّرَ العقـلُ وأزوى أيّ زَي

==============================

صاحب الآي : صاحب المعجزات ، وأزوى : أبعده ونحّاه جانباً .

تقول الشاعرة : وهو ﷺ صاحب المعجزات العظيمة الكثيرة التي أويد بها، ففاقت كل معجزة أيد الله بها أنبياءه ورسله ، حتى أنه لعظمتها لا يكاد يصدقها العقل كثرة وعظمة ،لذلك لا يملك الإنسان إلا أن يسلم بها ويضع العقل جانباً لأنه لن يدرك حقيقتها ونهايتها ، ويرحم الله البوصيري إذ يقول :

وكلّ آيٍ أتى الرسلُ الكرامُ بها   فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضلٍ هم كواكبها   يُظهرن أنوارها للناس في الظُّلَم

واعلم أن كل معجزة أتى بها كلُّ واحد من الرسل فإنما اتصلت به من نور سيدنا محمد ﷺ أما آدم عليه السلام فالمقصود من خلقه خلقُ نبينا محمد ﷺ في صلبه،

فسيدنا محمد المقصود وآدم الوسيلة والملائكة أُمروا بالسجود له عليه السلام لأن نور سيدنا محمد كان في جبهته، والتشريف الذي شرّف اللهُ به محمدا ﷺ بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ صلى الله عليه وسلمالأحزاب:56) أتمُّ وأجمع من تشريف آدم بسجود الملائكة له، لأنه لا يجوز أن يكون اللهُ تعالى مع ملائكته في ذلك التشريف، فتشريفٌ يصدر عنه تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشريف تختص به الملائكة، وأما تعليم آدم الأسماء فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مُثِّلَتْ لي أمتي في الماء والطين ، وعُلّمتُ الأسماء كلها كما عُلّم آدم [28]﴾ وأما إدريس صلى الله عليه وسلم فرفعه الله مكاناً عليّا ، وأعطى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم المعراج لم يُرفع إليه غيره، وأما نوح ﷺ فنجاه الله ومن معه في السفينة وأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم تهلك أمته بعذاب من السماء ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِم ﴾ صلى الله عليه وسلمالأنفال:33) وأما أبونا إبراهيم ﷺ فكانت نار النمرود عليه برداً وسلاما، فأُعطي سيدنا محمد ﷺ نظير ذلك إطفاء نار الحرب عليه، وناهيك بنارٍ حطبها الحطب والشجر ونار حطبها السيوف ووهجها الحُتوف، ومُوقدُها الحسد ومطلبها الروح والجسد ، قال تعالى ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ صلى الله عليه وسلمالمائدة: 64) وما أعطيه سيدنا إبراهيم ﷺ من الخلة فقد أعطيه سيدنا محمد ﷺ وزاد عليه بمقام المحبة،فسيدنا إبراهيم خليل الله، وسيدنا محمد حبيب الله، وما أعطيه سيدنا موسى ﷺ من قلب العصا حية غير ناطقة ، فقد أعطي سيدنا محمدٌ ﷺ حنين الجذع حتى سمع كل مَن كان في المسجد صوته وحنينه له ﷺ حتى نزل عن المنبر واحتضنه وبشره بأن يكون شجرة في الجنة [29] وما أعطيه سيدنا موسى ﷺ من اليد المضيئة فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ أعظم من ذلك حيث جعله الله نوراً لم يزل ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية ، فشتان بين من أضاءت له يده ساعة من النهار وبين من جعله الله نوراً على الدوام ، وأما ما أعطيه سيدنا المسيح ﷺ من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فقد أعطي سيدنا محمدٌ ﷺ أنه ردّ الأعين التي قُلعت في المعارك ، وفي دلائل النبوة للبيهقي قصة الرجل الذي قال للنبي ﷺ لا أومن بك حتى تحيي لي ابنتي ، فأتى النبي ﷺ قبرها فقال : يا فلانة فقالت : لبيك وسعديك يا رسول الله ، فقال : أتحبين أن تعودي إلى الدنيا ؟ قالت: لا ، إني

[28] رواه الديلمي في الفردوس **166/4** .

[29] رواه الضياء في المختارة **37/5** وغيره بسند صحيح .

وجدت الله خيراً لي من أبوي ، وقد خُص ﷺ من خصائص التكريم ومظاهر التبجيل ما لم يعطَ نبيٌّ قبله .

ولـه الجاهُ الذي لا ينبغي   لسواهُ يومَ تُطوى الأرضُ طي

==========================

وقرا بعضهم:

وله الجاه الذي لا يحتمى   بسواه يوم تطوى الأرض طي

وكلٌ من المعنيين صحيح، لكن هذا اللفظ هو الذي ورد في ديوان الشاعرة، قالت:

وله أيضاً الجاه العظيم الذي لا ينبغي لأحد قبله ولن يكون لأحد بعده ، وقد خصه الله تعالى بأشياء لم يعطها لنبي قبله ، وما خُصّ نبيٌّ بشيءٍ إلا وقد كان لسيدنا محمد مثله وأكثر فسيدنا سليمان ﷺ قال ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ صلى الله عليه وسلمصّ:35) فأعطاه الله الحكم على الطير والجن والشياطين والريح، وملك الدنيا بأسرها ، لكن ملكه وجاهه لم يصل إلى الحد الذي وصله سيدنا رسول الله ﷺ فقد وصل ملك سيدنا محمد ﷺ إلى كافة بقاع الدنيا، وكان ملك سليمان أربعين سنة على الرأي الراجح، وملك رسول الله إلى الأبد،وأخبر أنه غفر لسيدنا سليمان ما استغفر منه، وأما سيدنا محمد فقد غفر له ما تقدم وما تأخر، وأما الاحتماء بجاهه فقد ورد في أكثر من حديث صحيح منها: فقد روى مسلم وغيره في صحيحه عن سيدنا أنس بن مالك قال: حدثنا محمد ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذريتك فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول: أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله ثم أخر له ساجدا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: رب أمتي أمتي فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: أمتي أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب أمتي أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى

أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال: ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال: لا إله إلا الله[30]

وبهِ أُسري على معراجِهِ لاختصاصٍ من ورا طُورِ النُّهَي

==============================

الإسراء: المشي آخر الليل، المعراج : ما يرتقي عليه الإنسان في صعوده إلى الأعلى، ومنها قوله تعالى ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُون ﴾ صلى الله عليه وسلمالزخرف: 33) النهي: مصغر نهى وهو العقل.

ومن مظاهر التكريم التي أُكرم بها سيدنا محمدٌ ﷺ أنه أويد بالمعجزات الربانية فمن ذلك معجزة الإسراء والمعراج ، وقد وردت لنا هذه المعجزة بطريق التواتر ، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم بسورتي الإسراء والنجم ، وقد أسري به ﷺ بروحه وجسده، وهذا مذهب الجمهور، ولمزيد من إلقاء الضوء على هذه المعجزة نقول: اعلم أن حادثة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات وأعظم الآيات وأظهر البراهين الدالة على صدق نبوته ورفعة مكانته ، فمن صدقها أنها بالروح وبالجسد خلافاً لمن قال إنها بالروح فقط ، فلو كانت بالروح فقط لم تكن معجزة ولم يكن لها تلك الأهمية بحيث جاءتنا بطريق التواتر ونزل ذكرها في القرآن يتلى على مرّ الدهور، وقد أورد القرآن ذكرها بمجال التعظيم فقال ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ صلى الله عليه وسلمالاسراء:1) فبدأ جل شأنه السورة بقوله سبحان وهي اسم فعل يفيد التعظيم لأمر جلل ، والجلل في هذه الحادثة أنها بالروح والجسد معاً ، فالعقل لا يقبل الذهاب إلى جهة العلو مسافة ملايين الكيلو مترات في ساعات قليلة ، واختراق المجال الجوي للسماء الدنيا بما فيها من أفلاك ونجوم وشهب ، واختلال الضغط الجوي في طبقات الجو العليا التي تسبب النزيف الدموي في الجسم ، ومن الجلل فيها أن النبي ﷺ لم يلبس بدلة خاصة كما يلبسها روّاد الفضاء في هذه الرحلة ، ولم يركب مركبة فضائية، ولم يفقد التحكم عند انعدام الجاذبية الأرضية وانعدام الوزن الجسمي، ومع ذلك لم ترافقه أجهزة الرصد والتحكم حتى لا يضل عن الطريق، ولم يكن معه الأجهزة السلكية أو اللاسلكية للتحدث مع الأبراج الأرضية وغرف العمليات ، فهذا كله من مظاهر العظمة، وأما لو كانت بالروح فقط لشاركه عليه الصلاة والسلام الكثير في هذا الأمر، لأن

[30] رواه مسلم في صحيحه **183/1** .

الروح تسرح في النوم إلى عالمها في الملكوت الأعلى، ولربما وصلت إلى العرش ودخلت الجنة ، ومعلوم أن الجنة فوق الكرسي وتحت العرش .
فاختصاص الله تعالى نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام بهذه المعجزة التي لم تكن لأحد قبله ولن تكون لأحد بعده هي من أكبر الأشياء والمكارم التي اختص بها صلى الله عليه وسلم، ولم يكن بمقدور البشر أن يعرف كنه هذه الرحلة السماوية، فهي من جملة الغيبيات التي يجب على المسلم أن يؤمن بها فقط كمعجزة، أما ما صاحب ذلك من مظاهر التكريم والتشريف فهو من وراء طور العقل البشري.

وأراهُ اللهُ من آياتهِ　　　　ولقد كان كقابٍ من قُسَي

==============================

قاب القوس : القاب هو المقدار وقاب القوس هو ما بين المقبض وطرف القوس وهما قابان ، يقال : بينهما قاب قوس كناية عن شدة القرب ، القسي : تصغير قوس وهو أداة رمي وقتال .

تقول الشاعرة: إن من مظاهر التكريم والتبجيل الدالة على عظمة النبي ﷺ وجاهه العريض أن أسري به إلى بيت المقدس راكباً على البراق ، ثم عروجه إلى السماوات العلى حيث كان جبريل من جملة خدامه وأمره بأن يريَ النبي ﷺ من عظيم آيات الله تعالى وبديع صنعه مما خفي على الخلق ليبلغ أمته ذلك .
واعلم أن المعاريج ليلة الإسراء عشرة ، سبعة إلى السماوات أي لكل سماء معراج، والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صلى الله عليه وسلم صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي، ولنذكر بعض الآيات التي أشارت إليها الشاعرة بقولها: وأراه الله من آياته :

الآية الأولى : أنه مر ﷺ على قوم يزرعون ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنات إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

الآية الثانية: مر ﷺ على قوم ترضخ رؤوسهم بالحجارة كلما رُضخت عادت كما كانت ولا يُفتّر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة .

الآية الثالثة: أتى ﷺ على قوم أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام يأكلون الضريع والزقوم ورضْفَ جهنم، فقال : ما هؤلاء ؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد .

الآية الرابعة : أتى ﷺ على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم نيّء خبيث في قِدْر، فجعلوا يأكلون من النيّء الخبيث ويدعون النضيج فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح .

الآية الخامسة : أتى ﷺ على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

الآية السادسة : أتى ﷺ على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قُرضت عادت كما كانت لا يُفتّر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة .

الآية السابعة : أتى ﷺ على جُحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فيريد الثور أن يرجع فلا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

الآية الثامنة: أتى ﷺ على وادٍ فوجد فيه ريحاً طيبة باردة وريح مسك، وسمع صوتا فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول : يا رب آتني بما وعدتني فقد كثرت غرفي وإستبرقي وحريري وسندسي وعبقريّي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي ولبني وخمري فآتني بما وعدتني، قال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بي وبرسُلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئا ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشيني فهو آمن ومن سألني فقد أعطيته، ومن أقرضني جازيته ومن توكل عليّ كفيته ، إنني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين ، قالت: قد رضيت .

الآية التاسعة : ثم أتى ﷺ على وادٍ فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً منتنة فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يا رب آتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي وعذابي ، وقد بعُد قعري واشتد حرّي فأتني بما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب قالت : قد رضيت .

الآية العاشرة : ثم رُفع ﷺ إلى سدرة المنتهى فإذا كل ورقة منها تغطي هذه الأمة وإذا عين فيها تجري يقال لها السلسبيل فينشق منه نهران أحدهما الكوثر والآخر يقال له الرحمة، فاغتسل منها ﷺ فغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ثم رُفع إلى الجنة قال ﷺ فاستقبلتني جارية فقلتُ لها لمن أنت يا جارية ؟ قالت :

لزيد بن حارثة ، وإذا رمانها كأنه الدّلاء العظيمة ، وإذا طيرها كأنه البخت ، وغير ذلك 00000

ثم انتهى ﷺ إلى مقام وقف عنده جبريل ولم يتجاوز فقال له :يا جبريل في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله ؟ فقال : إن تجاوزت احترقتُ بالنور فقال ﷺ: يا جبريل هل لك من حاجة إلى ربك ؟ فقال: يا محمد سل اللهَ في أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه ، قال ﷺ ثم زُجّ بي في النور زجاً فخُرق بي سبعون ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجاباً ، وانقطع عني حسُّ كل مَلَك وإنسي، فلحقني عند ذلك استيحاش ، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي ، فبينما أنا أتفكر في ذلك أقول : هل سبقني أبو بكر ؟ فإذا النداء من العليّ الأعلى أدنُ يا خير البرية ، ادنُ يا احمدُ ، ادنُ يا محمدُ ، لِيَدنُ الحبيبُ ، فأدناني ربي حتى كنتُ كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ صلى الله عليه وسلمالنجم:8،9) قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه ، فوضع يده بين كتفيّ بلا تكييف ولا تحديد فوجدتُ بردها بين ثديي فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلّمني علوماً شتّى فعلْمٌ أُخذ عليّ كتمانه إذ علمَ أنه لا يقدر على حمله غيري، وعلمٌ خيّرني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل يذكرني به ، وعلم أمرني بتبليغه إلى الخاص والعام من أمتي ، ولقد عاجلت جبريل عليه الصلاة والسلام في آية نزل عليّ بها فعاتبني ربي وأنزل عليّ ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾صلى الله عليه وسلمطه: 114) ثم قلت: اللهم إنه لمّا لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت منادياً يناديني بلغة أبي بكر فقال لي : قف إن ربك يصلي فعجبتُ من هاتين هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام ؟ !!! وإن ربي لغنيٌّ عن أن يصلي ، فناداني : أنا الغني عن أن أصلي لأحد وإنما أقول سبحاني سبحاني رحمتي سبقت غضبي اقرأ يا محمد ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ صلى الله عليه وسلمالأحزاب:43) فصلاتي لك ولأمتك ، وأما أمر صاحبك يا محمد فإن أخاك موسى كان أُنسُهُ بالعصا ، فلما أردنا كلامه قلنا: وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال: هي عصاي وشُغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة ، وكذلك أنت يا محمد لما كان أُنسُك بصاحبك أبي بكر، وإنك خلقتَ أنت وهو من طينة واحدة ، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة خلقنا ملَكاً على صورته يناديك بلغته ليزول عنك الإستيحاش، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك ، ثم قال الله تعالى : وأين حاجة جبريل ؟ فقلت : اللهم أنت أعلم ، فقال : يا محمد قد أجبتُه فيما سأل ، ولكن في مَن أحبّك وصحِبّك .

واعلم أن هذا التكريم وهذا التبجيل لنبينا صلى الله عليه وسلم بعروجه إلى العُلا لم يكن لمقابلة الله تعالى ، فقد ظن البعض أن ذلك كان لأن الله تعالى على عرشه مستوٍ بذاته وأن معنى قوله تعالى ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أن سيدنا محمداً

ﷺ قد اقترب من الله تعالى قرب مسافة ، فهذا الظن منتفٍ وهذا القول عين الضلال ، ذلك لآن الله تعالى منزه عن المكان ، والقرب منه إنما هو قرب رتبة وعلو مكانة لا مكان ، فإن المكان دال على قرب الأجسام المخلوقة التي تشغل ظرفاً ، والظروف بحق الإله مستحيلة عقلاً ونقلاً ، فمن العقل يستحيل على الإله أن يحل ظرفاً مخلوقاً ، لأن الحال قد طرأ عليه التغير والإنتقال بهذا الحلول ، والذي يطرأ عليه التغير يطرأ عليه الفناء لقبوله ذلك في نفسه ، والفناء والتغير والحلول بحق الإله مستحيل ، وأما من جهة النقل فلقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فالمماثلة بحق الإله لبعض خلقه مستحيلة [31].

وَلَكَمْ قامتْ على تفضيلهِ حُجَجٌ كالشمسِ ما عنها غُطَي

==============================

حُجج : جمع حُجة وهي البرهان ، غُطي : تصغير غطاء .

بعد أن فرغت الشاعرة من عرضها لحادثة المعراج ، وأن هذه الحادثة من أعظم الحادثات الدالة على رفعة جاهه وعظيم منزلته استطردت قائلة مقسمة على أن الله تعالى قد أيد محمداً ﷺ ببراهين عظيمة، بحيث أن من شدة وضوحها وسطوعها كالشمس في رابعة النهار ليس دونها سحاب،وهذه الآيات النعجزة تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى قد اصطفاه من بين خلقه ، وجعله محلّ نظره من الكون، فمن ذلك ما ستعرضه في الأبيات التالية .

أمَّـــهُ بالرســـلِ منها وكذا حشرُهم تحتَ لواهُ يا أخَي
وإذا ما أحجموا عن رتبةٍ قام فيها شافعاً من غير لَي

========================

أَمَّــهُ: صلاته بالأنبياء والرسل إماما في المسجد الأقصى، أحجم: امتنع، لي: تردد.

أولى هذه الدلائل أنه ﷺ لمّا أسري به إلى بيت المقدس جمع الله له أرواح الأنبياء فقدّموه ليصلي بهم إماماً ، وفي هذا دلالتان :

الأولى: أن أفضل الخلق على الإطلاق هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

الثانية: إمامته بهم عليهم الصلاة والسلام تعني أنه أفضلهم لأنه قد جاء في شرعه ﷺ يؤم القوم أفضلهم ، فثبت من هذا أنه ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق وهذا دليل أول .

[31] انظر تخريج أحاديث الإسراء والمعراج في كتاب المرحوم محمد بن علوي المالكي " وهو بالأفق الأعلى" حيث أور أحاديث الإسراء بكافة طرقها، وناقشها عقلياً وعلمياً .

وأما الدليل الثاني التي استشهدت به الشاعرة فقولها : أن الأنبياء والرسل سيحشرون تحت لوائه يوم القيامة ، وقد ورد بذلك أحاديث صحيحة منها ما رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ ﴿ أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبيٍّ يومئذٍ آدم فمن دونه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشقُّ الأرض عنه ولا فخر قال : فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم عليه السلام فيقولون : أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك فيقول: إني أذنبت ذنباً أُهبطتُ منه إلى الأرض ولكن ائتوا نوحاً، فيأتون نوحاً عليه السلام فيقول: إني دعوتُ على قومي دعوةً فأُهلِكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول: إني كذبتُ ثلاث كذبات [32] قال رسول الله ﷺ ما منها كذبة إلا ما حلّ بها عن دين الله تعالى صلى الله عليه وسلم أي أنها كلام حق بصورة الكذب ليقيم الحُجة على قومه) ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول: إني قتلتُ نفساً ولم ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول : إني عُبدتُ من دون الله ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتونني فأنطلق معهم قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ قال: فآخذ بحلقة باب الجنة فأُقعقعها فيقال: من هذا ؟ فيقال : محمد فيفتحون لي ويُرحّبون فيقولون: مرحباً مرحباً فأخر ساجداً فيلهمني ربي الثناء والحمد فيقال: ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع تُشفّع وقل يُسمَع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ صلى الله عليه وسلمالاسراء: 79) وهذا معنى قول الشاعرة: وإذا ما أحجموا عن رتبة قام فيها شافعاً من غير لي ، أي أن الناس يوم القيامة عند اشتداد الكُرَب يأتون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليشفعوا لهم من هول الموقف حيث يقول الناس: إن الرسل أفضل الخلق وأكرمهم على الله فلنستشفع بهم إلى الله ليريحنا من هذه الشدة فإنه قد نزل بالناس ما ترون ، فيأتون آدم فيقولون: يا أبتاه إنك أول الخلق وأبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة فاشفع لنا إلى ربك فإنك ترى ما نزل بالناس فيقول: إنه لم يخرجكم من الجنة غيري حيث أكلتُ من الشجرة ، انطلقوا إلى غيري اذهبوا إلى إدريس ، فيذهبون إلى إدريس فيقولون : لقد رفعك الله مكاناً عليّا لكرامتك عليه فاشفع لنا إلى ربك فإنك ترى ما نزل بالناس فيقول: اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح وهكذا ما من نبي إلا ويحيل الأمر على غيره ويذكر شيئاً ليدفع به الناس لأنهم يعرفون أن هذه النوبة هي نوبة محمد ﷺ فلا يشفع أحد دونه ، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد إنك حبيب الله وخاتم الرسل وقد غفر لك ما

---

[32] إن الشرع يحيل تلبس الأنبياء بهذه المعصية لعصمتهم من الذنوب صغيرها وكبيرها، ولكن للمعصية صورة وحقيقة، فهذه هي في صورة المعصية لا في حقيقتها، وهي من المعاريض وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، وعلى كل حال فإني قد ناقشت هذه الأمور في كتابي " القول الفصل في عصمة الرسل" وهو ضمن سلسلة الأبحاث التي كتبتها في العقيدة تحت عنوان " الترابط الجذري بين أهل الكتاب والمجسمة00" فليراجعه من شاء .

تقدم من ذنبك وما تأخر، وأسرى بك إلى السماوات العلى وكلّمك كفاحاً فاشفع لنا إلى ربك فإنك ترى ما نزل بالناس فيقول ﷺ نعم أنا لها أنا لها ، فيخر ساجداً لله ويلهمه الله من حُسْن الثناء والحمد عليه تعالى ما لم يفتحه على أحد قبله ، فينادى يا محمد ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع تُشفّع وقل يُسمع ، فيقول : أمتي يا رب أمتي يا رب ، فيأمر الله تعالى بالفصل والقضاء بين الخلائق وهذه هي الشفاعة الكبرى له ﷺ حيث تظهر سيادته على الخلق أجمعين .

ولـهُ كمْ معجزاتٍ ظهرت وتبدّى نورُها في كلِّ حَي

=================================

المعجزة : أمر معجز خارق للعادة يظهره الله على يد النبي إظهاراً لنبوته متحدياً به الخلق أن يأتوا بمثله .

الدليل الثالث : ومن الأمور الدالة دلالة واضحة على علو قدره ﷺ وتفضيله على سائر الخلق هو ما أيده الله تعالى به من المعجزات ، ومعجزاته ﷺ كثيرة يصعب استقصاؤها وحصرها، وهي من العظمة بمكان، ولعظمتها وكثرتها اشتهرت عنه بين القاصي والداني والعدو والصديق على حد سواء ، وكثرة المعجزات دالة على خطر من أجراها الله على يديه وعلى علو قدره وقربه من ربه ، لذلك استدلت الشاعرة على تفضيل النبي ﷺ على سائر الخلق بما أيده الله به من هذه الخوارق ، وستذكر الشاعرة في سياق شِعرها بعضاً منها .

معجزُ القرآنِ منها ولكم فيهِ من آيٍ تردُّ الميْت حَي

====================================

هذه هي المعجزة الأولى التي ابتدأت بها الشاعرة ألا وهي معجزة القرآن الكريم، وهو أعظم معجزة له ﷺ وإنما كانت أعظم معجزة لأنها باقية على مرّ العصور والتحدي ما زال قائماً، فقد تحدى القرآن الثقلين صلى الله عليه وسلم الإنس والجن) أن يأتوا بسورة أو حتى بآية مثل القرآن الكريم بلاغة وعلماً ، وقد جاء معارضة القرآن على ألسنة بعض الفرق الضالة والكافرة، وبان الفرق جليّاً بين القرآن وهذه النصوص المعارضة، فقد حاول مسيلمة الكذاب معارضة سورة النازعات فقال: والحاصدات حصدا، فالعاجنات عجنا، والخابزات خبزا 000الخ هرائه ، ثم قال : ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بيت صفاق وحشى ، وحتى يبين الفرق بين الضدين دعنا نقرأ الآيات القرآنية التي في هذا المعنى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ صلى الله عليه وسلمالطارق:5) وقد عارض الشيعة القرآن بنصوص سأورد بعضاً منها : يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا في علي نوراً مبينا ، يا أيها الذين أمنوا آمِنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم ، نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم .

ولست بحاجة إلى نقض أي من النصين، فهما متهافتان متداعيان، ويظهر الفرق واضحاً عند من أدنى له مسكة من علم .

فهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحوي بين دفتيه آيات عظيمة بحيث بلغ من عظمتها أنها ترد الميت حياً، والموت صنفان: الأول هو الموت الطبيعي الذي تغادر الروح الجسم إلى البرزخ ويكون على يد ملك الموت، والثاني: هو موت النفس عن مألوفاتها، بحيث يعقبه نور في القلب يحيا المرء بهذا النور، ويكون له دليل يهتدي به في ظلمات الكون، وكما قال الله تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس ﴾ صلى الله عليه وسلمالأنعام:122) .

ويكفي القرآن شرفاً أن الله تعالى أحيا به الأمم الجاهلة التي كانت من عصر النبي ﷺ إلى يومنا هذا، سواء على الصعيد الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والسياسي والطبي وغيرها، فأنزل الله تعالى فيه من الأنظمة ما أحيا به الخلق جيلاً بعد جيل.

سائرُ الأفهامِ عنه حسِرت وتبدّت من حَيَاها في رُدَي

==================================

حسرت : عجزت ، الحياء : الخجل ، ردي : تصغير رداء وهو الثوب .

تقول الشاعرة: إن معجزة القرآن الكريم التي أيد الله تعالى بها نبيه محمداً هي فوق مستوى العقل، لأن الله تعالى تحدى به البلغاء في عصر صناعة الأدب بشقّيه؛ الشعر والنثر ، ومعلوم أن العرب كانوا أفصح من نطق بالضاد ، منهم الشعراء أصحاب المعلقات، ومنهم أصحاب الحوليات، ومنهم أصحاب الموشحات، ومنهم الأدباء والكتّاب وأصحاب المقامات، وغيرهم من النقّاد الذين عاصروا القرآن ومن جاءوا بعده والتحدي قائم ولم يأتِ أحد منهم ما هو شبيهٌ بالقرآن، والناظر في القرآن ربما يجد أسس التحدي بالأمور التالية:

❁ تحديه الإنس والجن عن الإتيان بمثله مجتمعين ومنفردين ، والتحدي قائم إلى يوم القيامة مع عجزهم لغاية الآن عن الإتيان بمثله، فهذا وحده كافٍ في الإعجاز .

❁ حفظ القرآن من عبث العابثين، فقد تحدى الناس أن يحرفوه فيزيدوا فيه ولو حرفاً واحداً، أو ينقصوا منه ولو حرفاً واحداً، فلم يقع لغاية الآن فيه تحريف، وهذا من وجوه الإعجاز ، وما وقع أخيراً من اليهود في أمريكا من إلغاء لآيات الجهاد والآيات التي تنص على عداوة أهل الكتاب فلا قيمة له، لأنه لم يجد رواجاً عند أحد حتى عند من حرفوه، والقرآن باق في الصدور وفي المصاحف.

❁ الإخبار عن المغيبات سواء التي وقعت أو التي ستقع مستقبلاً، فمنها ما أخبر عنه من أن أبا لهب سيموت على الكفر هو وامرأته فوقع كما قال، وهذا ليس بمقدور البشر الإتيان بمثله .

❁ الإعجاز البلاغي الذي تحدى به البلغاء، سواء في سهولة مخارج الكلمة أو الحس الموسيقي للآية أو النظم والتركيب اللفظي أو ما جاء من البيان والبديع وغير ذلك من أساليب اللغة عند العرب .
❁ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وإخباره عن نظريات لم يكن العلم قد اكتشفها بعد، وأن العلم الحديث لعاجز عن إدراك حقيقة هذه النظريات ، منها :
01 في علم الكواكب قوله تعالى ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ صلى الله عليه وسلمالواقعة:75،76) فقد عجز العلم عن إدراك هذه النظرية وإنما أشار إليها إشارة، وأن ما أخبر به علماء الفلك لم يكن على وجه اليقين وإنما هو على وجه الظن والتخمين .
02 قوله تعالى ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ صلى الله عليه وسلمالذريات:20،21) فقد وقف الإنسان عاجزاً عن حلّ لغز هذه الآية ، فلم يعرف الإنسان حقيقة نفسه، وأين الروح والعقل منه، وما هي الانفعالات النفسية والصدمات العصبية، وما هو سبب التأثير بالوراثة وغير ذلك .
❁ قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً﴾ صلى الله عليه وسلمالإسراء:85) فمعرفة ماهية الروح وحقيقتها وما هو سر التلازم بينها وبين الجسد، وما هو تأثيرها فيه، وما هي العلاقة بينها وبين النوم، وما هو سر تغميض العين عند النوم وأين الروح والعقل منه إذا غلبه النوم لهو من الأمور الغامضة عند كافة البشر.
وغير ذلك الكثير مما هو معجز للبشر ، فلا يسع الإنسان إلا أن يقف حائراً مستسلماً أمام هذه المعجزة وأن يسال الله زيادة العلم .

وانشقاقُ البدر منها جهرةً   ومردُّ الشمس من بعدِ العُشَي

==============================

فمن هذه الآيات المعجزة والتي هي خارج نطاق العقل معجزة انشقاق القمر له ﷺ وقبل أن نعرض هذه الحادثة على لسان الحفاظ لا بدّ من مناقشة هذه الآية كيف صارت فوق طور العقل، معلوم أن القمر كبير الحجم، وهو كما قال علماء الفلك: انه منشق من الأرض ، والأرض تتكون من التراب والصخور والمعادن المدفونة فيها، وانشقاق الأرض من قبل مخلوق لا يقبله عقل ومثل ذلك القمر، فإن قدرة المخلوقين غير صالحة لمثل هذا الأمر ، زد على ذلك أن القمر بعيد آلاف الكيلومترات من الأرض ، وهو يجري في فلكه بسرعة كبيرة ، فكيف يتم السيطرة عليه من بُعْد وشقه نصفين بإشارة إصبع ؟؟!! لذلك إن هذه الحادثة هي خارج نطاق العقل، والحادثة هذه جاءتنا بطريق التواتر حيث نطق القرآن بها فقال ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ صلى الله عليه وسلمالقمر:1،2) واعلم أن القمر لم ينشق لغير نبينا محمد ﷺ وهو من أمهات معجزاته، وقد أجمع المفسرون وجمهور أهل السنة على وقوعه، فإن كفار قريش

لمّا كذّبوه ﷺ ولم يصدّقوا بدعوته علّقوا الإيمان به على أمر مستحيلٍ في نظرهم حتى يوجدوا العذر من أنفسهم لعدم التصديق به ﷺ بدليل عقلي، ففكروا جميعاً على أمر لن يكون بمقدور النبي ﷺ الإتيان بمثله، فأوحى إليهم الشيطان أن اطلبوا منه أن يشق لكم القمر نصفين بحيث يروه كلهم في أرجاء مكة جميعها، فاستحسنوا هذا الأمر وقالوا: إنا سنعجز محمداً في ذلك ولن نؤمن بدعوته حتى يشقّ القمر وأنى له بذلك ؟!! فقالوا له: يا محمد إنا سنطلب منك طلباً إن أنت أعطيتناه آمنا بك فقال ﷺ ما هو؟ قالوا: أن تشق لنا القمر نصفين قال: إن أنا شققته لكم أتؤمنوا ؟ قالوا : نعم ، لعلمهم أن هذا الأمر مستحيل ، وهو خارج عن مقدور البشر أن يأتي بمثله فقال: اشهدوا قالوا: شهدنا فأشار ﷺ إلى القمر وكان ليلة بدر والسماء صافية لا يحول بينهم وبينه حائل، فانقسم القمر نصفين ، نصف باتجاه غار حراء ونصف باتجاه الصفا حتى ظنوا أنه سيسقط عليهم قالوا له: ردّه إلى مكانه فأشار إليه ﷺ فعاد كما كان بدراً في السماء .

والجمادات عليه سلمت مثل ما حياه ضب وظبي

==============================

ومن جملة المعجزات التي أيده الله بها أن الجمادات البكم مثل الحجر والشجر سلّمت عليه ﷺ فقد كان ﷺ في مكة وكان يخرج لقضاء حاجته فكلما مرّ على شجرة إلا وقالت: السلام عليك يا رسول الله بلسان عربي فصيح يسمعه بأذنه وليس كشفاً أو من طريق التخيل، وكلما مرّ بحجر أو صخرة في طريقه إلا وقال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت فلا يرى شيئاً غير الحجر .

وقد ورد بذلك أحاديث صحيحة منها ما رواه مسلم عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن [33] وروى الحاكم وغيره عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله [34].

وكذلك من جملة هذه الآيات أن أعرابياً من بني سُلَيْم قد صاد ضبّاً وجعله في كمه، ثم ذهب ليشويه ويأكله، ومعلوم أن الضب من الزواحف يعيش في الصحراء يشبه التمساح شكلاً ولحمه حلال، فمرّ بالنبي ﷺ فلما رأى الجماعة قال: من هذا ؟ قالوا: نبيّ الله ﷺ فأخرج الضب من كمّه وقال: يا محمد أنت تدعو إلى الإيمان بك ؟ قال: نعم قال : واللات والعزى لا أومن بك حتى يؤمن هذا الضب فقال النبي ﷺ يا ضبُّ، فأجابه بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً لبيك وسعديك يا رسول

---

[33] صحيح مسلم **1782/4** .

[34] المستدرك على الصحيحين **677/2** وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

الله ، فقال: من أنا ؟ قال الضب : أنت محمد رسول الله ، فآمن يا زين مَن في القيامة ، قال: مَن تعبد؟ قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار سخطه وعقابه ، قال : مَن أنا ؟ قال : أنت رسول رب العالمين وخاتم النبيين، قد افلح من أمن بك وّصدّقك وخاب من كذّبك فأسلم الأعرابي .

ورواية الطبراني عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء رجل أعرابي من بني سليم قد صاد ضبا وجعله في كمه فذهب به إلى رحله فرأى جماعة فقال: على من هذه الجماعة ؟ فقالوا على هذا الذي يزعم أنه نبي فشق الناس ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ما اشتملت النساء على ذي لهجة أكذب منك ولا أبغض، ولولا أن يسميني قومي عجولا لعجلت عليك فقتلتك فسررت بقتلك الناس جميعا فقال عمر : يا رسول الله دعني أقتله فقال رسول الله ﷺ أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا ؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: واللات والعزى لا آمنت بك، وقد قال له رسول الله يا أعرابي ما حملك على أن قلت ما قلت؟ وقلت غير الحق ولم تكرم مجلسي؟ فقال وتكلمني أيضا استخفافا برسول الله ﷺ واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب! فأخرج ضبا من كمه وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ فقال إن آمن بك هذا الضب آمنت بك فقال رسول الله: يا ضب فتكلم الضب بكلام عربي مبين يفهمه القوم جميعا: لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين فقال له رسول الله ﷺمن تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عذابه قال: فمن أنا يا ضب؟ قال: أنت رسول رب العالمين وخاتم النبيين قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقا [35].

ومن ذلك حديث الغزالة رواه كثير من الأئمة من طرق يقوي بعضها بعضاً أن النبي ﷺ كان في إحدى غزواته فمر الجيش بغزالة فاصطادها أحد الجنود وأوثقها رباطاً ثم نام قريباً منها ، فمرّ بها النبي ﷺ وهو لا يراها فهتف به هاتف ثلاث مرات ، فالتفت فرأى الغزالة وبجانبها الأعرابي وهو منجدلٌ في شملة وهو نائم في الشمس، فقال: ما حاجتك؟ فقالت : إن هذا الأعرابي قد صادني وإن لي خشفين صلى الله عليه وسلم أبناء الغزالة) ولم أرضعهما وهما الآن في الجوع ، فأطلقني حتى أرضعهما ثم أعود ، قال : ومن يضمن لي أن تعودي ؟ قالت : عذّبني الله عذاب العشّار إن لم أعد صلى الله عليه وسلم والعشار هو موظف الجمارك في المصطلح الحديث) فأطلقها النبي ﷺ فغابت ساعة ثم عادت ووقفت في مكانها

---

[35] رواه الطبراني في المعجم الأوسط **127/6** .

فأوثقها النبي ﷺ فانتبه الأعرابي وقال : يا رسول الله ألك حاجة ؟ قال : نعم أن تطلق هذه الغزالة ،فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء تضرب الأض برجليها فرحاً وهي تقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [36] .

ولكم عمّت جموعاً يـدُهُ بأيادٍ بعضُها شبعٌ ورِي

================================

جموع : مفردها جمع وهم القوم الكثيرون فهي جمع الجمع كناية عن الكثرة، يده : عطاؤه ومدده ، بأياد : جمع يد وهي الأعطية والمدد ، شبع : امتلاء المعدة من الطعام ، والري : سد حاجة الجسم من الماء .

تقول الشاعرة : إن المدد النبوي الذي أعجز البشر أن يأتوا بمثله، وأن دلائل نبوته وعظيم جاهه عند خالقه قد عمّ الأمم من الناس، وقد كان هذا المدد متنوع الأجناس، فمن ذلك تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الجمع الكثير فسد حاجتهم والطعام على حاله لم يعترضه نقص ، ومثل ذلك سد حاجة الناس من الماء بنبعه من بين أصابعه الشريفة ﷺ وهذا من أبلغ معجزاته ، فنبع الماء من الحجر الذي ضربه سيدنا موسى ﷺ فتفجرت منه العيون هو معجزة لكن ليست من جنس معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه قد جرت العادة بنبع الماء من الصخر ، وهذا مشاهد بالحس والواقع ، أم أن تنفجر ينابيع الماء من بين أصابع اليد حتى تروّي الجيش الذي بلغ ثلاثين ألفاً فهذا غير معهود على مر التاريخ ، فقد نص العلماء على أن الماء الذي نبع من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم هو أشرف ماء في الوجود لشرف المحل الذي نبع منه ، وأما من جهة سند المعجزة عند الحفاظ فأقول: روى أحاديث نبع الماء عدد من الصحابة منهم أنس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ففي الصحيحين عن أنس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوَضوء صلى الله عليه وسلم أي الماء) فلم يجدوه، فأُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بوَضوء فوضع يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم ، قال راويه : فقلنا لأنس كم كنتم ؟ قال : كنا ثلاثمائة [37].

وعن أنس أيضاً قال : كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال المسلمون: يا رسول الله عطشت دوابنا وإبلُنا فقال: هل من فضلة ماء ؟ فجاء رجل في شن صلى الله عليه وسلم أي قربة) بشيء، فقال: هاتوا صحفة فصبّ فيها الماء ثم وضع راحته في الماء قال: فرأيتها تخلّلُ عيوناً بين أصابعه قال: فسقينا إبلنا ودوابنا وتزودنا ، فقال: اكتفيتم ؟ فقالوا: نعم فرفع يده فارتفع الماء .

---

[36] رواه الطبراني في المعجم الكبير **23/ 331** .

[37] رواه البخاري **74/1** .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : خرج النبي ﷺ إلى قباء فأُتي من بعض بيوتهم بقدح صغير فأدخل يده فلم يسعه القدح ، فأدخل أصابعه الأربعة ولم يستطع أن يدخل إبهامه ثم قال للقوم : هلموا إلى الشرب قال أنس: فبصرت عيني ينبع الماء من بين أصابعه ، فلم يزل القوم يردون القدح حتى رووا منه جميعاً [38].

وأما حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ففي الصحيحين وغيرهما عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية وكان رسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها ، وجهش الناس نحوه صلى الله عليه وسلم أي فزع الناس إليه) فقال : مالَكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ما عندنا ماءٌ نتوضأ به ولا نشربه إلا ما بين يديك ، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا ، قال راويه : كم كنتم ؟ قال جابر : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة [39].

ومن المعجزات أيضاً ما رواه مسلم عن جابر في غزوة بواط قال: ثم سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئا يستتر به فإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي عليَّ بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي عليّ بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما [40] فقال: التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلا وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف وقفة فقال برأسه هكذا وأشار أبو إسماعيل برأسه يمينا وشمالا، ثم أقبل فلما انتهى إليّ قال يا جابر: هل رأيت مقامي؟ قلت: نعم يا رسول الله قال: فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما غصنا فأقبل بهما، حتى إذا قمت مقامي فأرسل غصنا عن يمينك وغصنا عن يسارك قال جابر: فقمت فأخذت حجرا فكسرته وحسرته فانذلق لي فأتيت الشجرتين فقطعت من كل واحدة منهما غصنا ثم أقبلت أجرهما حتى قمت مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت غصنا عن يميني وغصنا عن يساري ثم لحقته فقلت: قد فعلت يا رسول الله فعمّ ذاك؟ قال: إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يرفه [41] عنهما ما دام الغصنان رطبين قال: فأتينا العسكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جابر ناد

---

[38] رواه أبو عوانة في مسنده 137/5 .

[39] رواه الدارمي في سننه 26/1 .

[40] لأم : يعني جمعها .

[41] يرفه : يخفف .

بوَضـوء فقلـت: ألا وَضـوء ألا وضـوء ألا وضـوء ؟ قـال: قلـت :يـا رسـول الله مـا وجدت في الركب من قطرة ، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء فـي أشـجاب لـه علـى حمـارة مـن جريـد قـال: فقـال لـي: انطلـق إلـى فـلان بـن فـلان الأنصاري فانظر هل في أشجابه من شـيء؟ قـال: فانطلقت إليـه فنظـرت فيهـا فلـم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها لو أني أفرغه لشربه يابسه، فأتيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني لم أجد فيها إلا قطـرة فـي عـزلاء شجب منها لو أنـي أفرغـه لشـربه يابسـه قـال: اذهـب فـأتني بـه فأتيتـه بـه فأخـذه بيـده فجعل يتكلم بشيء لا أدرى ما هو ويغمره بيديه ثم أعطانيه فقال: يا جابر نـاد بجفنـة فقلت: يا جفنة الركب فأتيت بها تُحمل فوضعتها بين يديه فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم بيده فـي الجفنـة هكـذا فبسـطها وفـرق بـين أصـابعه ثـم وضـعها فـي قعـر الجفنة وقال: خذ يا جابر فصبّ علـيّ وقل باسم الله، فصـببت عليـه وقلـت: باسـم الله فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فارت الجفنـة ودارت حتـى امـتلأت فقـال: يـا جـابر نـاد مـن كـان لـه حاجـة بمـاء قـال: فـأتى النـاس فاستقوا حتى رووا قال: فقلت: هل بقـى أحـد لـه حاجـة؟ فرفـع رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يـده مـن الجفنـة وهـى مـلأى، وشـكا النـاس إلـى رسـول الله ﷺ الجـوع فقـال: عسـى الله أن يطعمكـم، فأتينـا سـيف البحـر فزخـر البحـر زخـرة فـألقى دابـة فأورينا على شقها النار فأطبخنا واشتوينا وأكلنا حتى شبعنا قـال جـابر : فـدخلت أنـا وفلان وفلان حتـى عـد خمسـة فـي حجـاج عينهـا مـا يرانـا أحـد حتـى خرجنـا فأخـذنا ضـلعا مـن أضـلاعه فقوسـناه ثـم دعونـا بـأعظم رجـل فـي الركـب وأعظـم جمـل فـي الركب وأعظم كفل في الركب فدخل تحته ما يطأطـيء رأسه[42]

وروى البخـاري بسـنده عـن عبـد الله قـال: كنـا نعـد الآيـات بركـة وأنـتم تعـدونها تخويفـا، كنـا مـع رسـول الله ﷺ فـي سـفر فقـلّ المـاء فقـال: اطلبـوا فضـلةً مـن مـاء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإنـاء ثـم قـال: حـيَّ علـى الطهـور المبـارك والبركة من الله، فلقد رأيـت المـاء ينبـع مـن بـين أصـابع رسـول الله ﷺ ولقـد كنـا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل [43].

وروى ابن خزيمة بسنده إلي جابر بـن عبـد الله قـال: سـافرنا مـع رسـول الله ﷺ فحضـرت الصـلاة فقال رسول الله ﷺ أما في القوم طهور؟ قال: فجاء رجل بفضـل ماء في إداوة قـال: فصـبه فـي قـدح فتوضـأ رسـول الله ﷺ قـال: ثـم إن القـوم أتـوا بقية الطهور فقال: تمسحوا به فسمعهم رسول الله ﷺ فقـال: علـى رسـلكم فضـرب رسول الله ﷺ يده في القدح في جوف الماء ثم قال: أسبغوا الطهـور فقـال جـابر بـن عبد الله: والذي أذهب بصري ــ قال: وكان قد ذهب بصره ــ لقد رأيت الماء ينبـع

---

[42] رواه مسلم في صحيحه 2308/4 .

[43] صحيح البخاري 1312/3 .

من بين أصابع رسول الله ﷺ فلم يرفع يده حتى توضئوا أجمعون قال عبيدة : قال الأسود: حسبته قال: كنا مائتين أو زيادة [44] .

قلت: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ قد تعدد في كثير من المواضع والمناسبات، واستفاض شهرة وورد إلينا بالأسانيد الصحيحة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد منه التواتر المعنوي ، ولم يُسمع بمثل هذه المعجزة من غير نبينا ﷺ وهي أبلغ في الإعجاز من نبع الماء من الحجر.

وأما ما أشارت إليه الشاعرة من إشباع الجياع بالطعام القليل فلا يقلّ شهرة عن نبع الماء من بين أصابعه ﷺ فعن سيدنا جابر رضي الله عنه قال : انكفأت إلى امرأتي في غزوة الخندق فقلت: هل عندك شيء فإني رأيت بالنبي ﷺ خمَصاً شديداً؟ فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنَتِ الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير فتعال أنت ونفرٌ معك ، فصاح النبي ﷺ يا أهل الخندق إن جابراً صنع سؤراً فحيهلاً بكم ، فقال النبي ﷺ لا تُنزلنّ برمتكم ولا يُخبزن عجينكم حتى أجيء ، ثم جاء فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك عليه ثم عمد إلى البرمة فبصق وبارك ثم قال : ادعي خابزة فلتخبز معكواقدحي من برمتكم ولا تُنزلوها ، وهم ألف فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغطّ وإن عجيننا ليخبز كما هو [45] .

وقوله داجن يعني سمينة ، والسؤر هنا الطعام، وحيهلاً بكم أي هلموا مسرعين، واقدَحي أي اغرفي ، وتغطّ أي تغلي .

وروى الشيخان أيضاً عن أنس قال أبو طلحة لأم سُلَيم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندكِ شيء ؟ فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً فلفّت الخبز ببعضه ثم دسّته تحت يدي ولاثتني ببعضه صلى الله عليه وسلم أي أدارت بعض الخمار على رأسي مرتين كالعمائم) ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس فسلمت عليه ، فقال لي رسول الله ﷺ أرسلك أبو طلحة ؟ قلتُ: نعم فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى أتيت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سُلَيم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت: الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه فقال رسول الله ﷺ هلمي يا أم سُلَيم ما عندكِ فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتّ وعصرت أم سُلَيم عكّة فأدمته ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول

---

[44] صحيح ابن خزيمة **56/1** .

[45] رواه مسلم في صحيحه **1611/3** .

ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال: ائذن لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً [46].

وهذه المعجزة أيضاً قد حصلت مرات كثيرة واستفاضت حتى صارت مشتهرة ، وهي من جملة المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيه محمداً ﷺ والتي تدل على رفعة مكانته عند خالقه .

ولكم قد ردّ عضواً بعدما صار مفصولاً وعيناً رأيَ عَيْن

====================================

ومن هذه المعجزات أيضاً ما أشارت إليه الشاعرة من إصلاح الأيدي والجوارح التي ذهبت في المعارك، وإبراء ذوي العاهات ، فقد أصيب يوم أُحد عين قتادة بن النعمان بسهم حتى وقعت على خدّه فأُتي به رسول الله ﷺ فقال : يا رسول إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني تقذرني فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردّها إلى موضعها وقال: اللهم اكسه جمالاً فكانت أحسن عينيه وأحدّهما وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى [47].

وفي معركة خيبر لما استصعب فتح بعض حصونها قال رسول الله ﷺ لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه اللهُ ورسولُه ويحبهما يفتح الله عليه ، فلما غدا في اليوم الثانية قال : أين علي بن أبي طالب ؟ قالوا : هو أرمد يشتكي عينيه ، فقال: ائتوني به فأتوه به فبصق في عينيه فبرأ لوقته وأعطاه الراية وفتح الله عليه[48] .

وروى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة في ساق سلمة فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقالك هذه ضربة أصابتني يوم خيبر فقال الناس: أصيب سلمة فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة [49].

وروى الطبراني وابن أبي شيبة عن حبيب بن أبي فُدَيك أن أباه خرج به إلى رسول الله ﷺ وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئا فسأله ما أصابه؟ قال: كنت أمرن جملا لي فوقعت رجلي على بيض حية فأصيب بصري، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر قال: فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة وأن عينيه لمبيضتان [50].

ومما وقع لأم عمارة رضي الله عنها في معركة أُحد أنها أصيبت في يدها من الكتف بضربةٍ من سيف عدو الله ابي قمئة فأحدثت فيها غوراً عظيماً حتى كادت

---

[46] رواه مسلم في صحيحه **1612/3** .

[47] المواهب اللدنية المقصد الرابع/ الفصل الأول .

[48] رواه الحاكم في المستدرك **117/3** .

[49] صحيح البخاري **1451/4** .

[50] المعجم الكبير **25/4**، والمصنف **328/6** .

تنفصل عن جسمها ، فرآها رسول الله ﷺ فقال : من فعل بك هذا ؟ قالت: ابن قمئة، فأمسك بيدها وأعادها إلى مكانها ووضع من ريقه الشريف على مكان الجرح فبرأت وكأنها لم تُصب قط[51] .

وبيُمْنِ اللمْسِ كَمْ ضَرْعٍ همى   بحليبٍ بعد يُبْسٍ وذُوَي

====================================

تقول الشاعرة : ولم يقتصر جاه رسول الله ﷺ عند هذا الحد فقد أعطاه من الآيات الدالة على عظيم جاهه ما سأقصه عليكم، فمن ذلك أن النبي ﷺ كان يمس ضرع الشاة الهزيلة التي ما بها من لبن فتدر باللبن حتى يشرب الناس، ومن ذلك شاة أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، حيث مرّ بها النبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة فطلبوا منها لبناً أو لحماً يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كِسر الخيمة خلّفها الجهد صلى الله عليه وسلم أي الضعف والهزال) عن الغنم فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: بأبي أنت وأمي إن رأيتَ بها حلباً فاحلبها ، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرّت ودعا بإناء يُشبع الجماعة فحلب فيه وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ثم حلب فيه مرة أخرى عللاً بعد نهل ثم غادره عندها أي تركه عندها ، فما لبث أن جاء زوجها يسوق غنمه ، فلما رأى اللبن عجِب وقال: ما هذا يا أم معبد قالت: إنه مرّ بنا رجل مبارك وكان من حاله كذا وكذا، ووصفته له فقال: واللهِ إنه لصاحب قريش لو رأيته لاتبعته وبقيت الشاة إلى خلافة عمر تحلب صباحاً ومساءً [52].

ولكم بالرِّيقِ داءٌ قد برا   ولكم بالنّفثِ من كَسْرٍ تَهَي

====================================

النفث : النفخ يكون معه شيء من الريق .

تقول الشاعرة : وكثيراً ما شفى الله تعالى بِريقِ رسوله ﷺ من أمراض قد استعصى علاجها ، وأبرأ الأعضاء التي كُسرت بمسحة من ريه الشريف ﷺ وقد سقت منها حالات عند شرحي للبيت الخامس والأربعين فلا داعي لإعادتها ، ولكن أزيد القارئ نافلة عن حادثات لم أسقها ، منها أن النبي ﷺ أرسل سرية لقتل عظيم من عظماء اليهود في خيبر يقال له " أبو رافع " وكانوا خمسة نفر أمّر عليهم عبد الله بن عتيك ، فلما تمّ قتله خرج عبد الله من بيت اليهودي ليلاً ، فسقط عن درج البيت فكُسرت رجله ، فاحتمله أصحابه حتى قدموا على رسول الله ﷺ فمسح مكان الكسر بشيءٍ من ريقه الشريف فبرأ وكأنه لم يشك رجله من قبل [53].

---

[51] السيرة النبوية **30/4**.

[52] رواه الحاكم في المستدرك **10/3** .

[53] رواه البخاري **1483/4** .

ومنها أن أبا جهل ابن هشام ضرب يد معوّذ بن عفراء فقطعت فجاء يحملها إلى رسول الله ﷺ فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها مكانها فلصقت وعادت أقوى يديه ، ومنها أن حبيب بن يساف قاتل مع النبي ﷺ في بدر فأصيب بضربة على عاتقه فأثرت الضربة فيه حتى كادت تقضي عليه ، ومال شقه فرده رسول الله ﷺ ومسحه بريقه الشريف فبرأ كأن لم يكن به علة.

وجاءته امرأة من خثعم معها صبي به بلاء لا يتكلم ، فأتي بماء فمضمض فيه ثم أعطاه إياه وأمرها بسقيه ومسّه فبرأ الغلام ، ومنها أن محمد بن حاطب كان طفلاً فخرج يحبو في صحن الدار فمس برمة صلى الله عليه وسلم قِدْر) على النار وهي تغلي فكفأت على ذراعه فاحترقت ، فمسح النبي ﷺ مكان الحرق فبرأ لحينه .

وأخرج البيهقي وأبو نُعيم عن رفاعة بن رافع قال : أخذت شحمة فازدرتها فاشتكيت منها سنة ، ثم إني ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فمسح بطني فألقيتها خضراء ، فوالذي بعثه بالحق ما اشتكيت حتى الساعة .

وأخرج الطبراني عن جرهد : أكل بيده الشمال فقال له النبي ﷺ كل باليمين فقال: إنها مصابة ، فنفث ﷺ عليها فما شكى حتى مات .

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن أنيس قال : ضرب المستنير بن رزام اليهودي وجهي فشجّني مُنقَلة أو مأمومة صلى الله عليه وسلم أي جرحاً جرحاً بليغاً في رأسه حتى كادت تصل الدماغ) فأتيت النبي بها ﷺ فكشف عنها ونفث فيها فما آذاني منها شيء[54] .

وبنبذِ التُّرْب في وجهِ العِدا أُلجِموا عنه وغشّاهم غُشَيَ

===================================

تقول الشاعرة : ومن جملة ما أكرم الله به نبيه محمداً ﷺ أن ألقى شيئاً من التراب في وجه أعدائه فأعماهم الله عنه ، فخرج من بين أيديهم ولم يروه ، كما حصل عند هجرته ﷺ فقد أمر علياً أن يبيت في فراشه وأن يلبس برده حتى إذا رأوه ظنوا أنه النبي ، وكان القوم قد جمعوا أربعين شاباً جلداً وفي يد كل واحد منهم سيفاً صارماً، وأحاطوا بمنزل النبي ﷺ فخرج من بينهم ليلاً وقد قبض قبضة من التراب وقرأ عليها صدراً من سورة يس حتى وصل قوله تعالى: فأغشيناهم فهم لا يبصرون قال: شاهت الوجوه ورمى التراب في وجوههم وخرج من بين أظهرهم ولم يبصره منهم أحد ، وقد وضع التراب على رأس كل واحد منهم ، وناموا حتى أصبحوا ولم يشعروا بخروجه ﷺ .

[54] انظر هذه المعجزات في كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني .

ومن ذلك ما حدث في غزوة بدر الكبرى ، حيث قبض النبي ﷺ قبضة من التراب وحصب بها الكفار ، فوصل التراب أعينهم وانشغلوا بإزالة التراب ، فما أفاق القوم إلا وقد قتل منهم سبعون وأسر مثلهم ، عدا من أصابته الجراحة ،ومثل ذلك وقع في غزوة حنين ، والقصة مشهورة .

وحبا جزلاً فأضحى صيْقَلاً ومن العُرجُونِ قد لاح الضُّوَي

==================================

وحبا: أعطى ، جزلاً عوداً من شجر النخيل ، صيقلاً : سيفاً صقيلاً شديد اللمعان، العرجون : عود النخيل ، الضوي : النور .

ومن ذلك ما أعطاه الله تعالى نبيه من انقلاب الأعيان في يده ، وإضاءة الخشبة اليابسة حتى لاح منها النور في الليلة شديدة العتمة ، فقد أعطى النبي ﷺ عُكّاشة جذل حطب حين انكسر سيفه في بدر ، وقال : اضرب به فعاد سيفاً صارماً طويل القامة أبيض شديد اللمعان فقاتل به يومه ذاك ، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف مع رسول الله ﷺ إلى أن استشهد يوم اليمامة في قتال أهل الردة ، وكان هذا السيف يسمى العون [55].

وأعطى ﷺ عسيب نخل يوم أحد لعبد الله بن جحش وقد ذهب سيفه فعاد في يده سيفاً صارماً .

هذا ما يتعلق بانقلاب الأعيان ، وأما ما قالت عنه الشاعرة من انبعاث النور من الخشبة اليابسة دون أن تشعل فيها النار فقد أعطى ﷺ قتادة بن النعمان وقد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عُرجوناً وقال : انطلق به فإنه سيضيء من بين يديك عشرا ومن خلفك عشرا ، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه به حتى يخرج فإنه شيطان .

ومن ذلك أن أسيد بن حُضير وعبّاد بن بشر كانا في ليلة مظلمة عند رسول الله ﷺ وتحادثوا ساعة بعد العشاء ، فلما خرجا من عند رسول الله ﷺ وكان بيد كل واحد منهما عصاة ، فأضاءت عصا أحدهما حتى مشوا في نورها ، فلما أرادا أن يفترقا أضاءت عصا الآخر وغدا يمشي كل واحد منهما في النور[56] .

ودعاها فاستجابت شجراً وأتت تسعى ولم تَلْوِ لِلَي

==================================

تقول الشاعرة: ومن ذلك أن النبي ﷺ أعطي طاعة الشجر له زيادة على ما أكرمه الله به من طاعة البشر والجن ، فكان إذا دعا شجرة أجابته سريعاً حتى تقف بين يديه مسلّمة عليه بالنبوة ، فقد روى غير واحد أن النبي ﷺ دعا أعرابياً إلى

---

[55] سير أعلام النبلاء **308/1** .

[56] رواه ابن حبان في صحيحه **378/5** .

الإسلام فقال : أرني آية فقال له ﷺ ما تريد ؟ فقال : أن تدعو هذه الشجرة ، فقال له : أرأيت إن دعوتُها أتؤمن؟ قال: نعم فقال ﷺ اذهب فادعها ، فذهب الأعرابي إلى الشجرة وقال لها: إن محمداً يدعوك فمالت الشجرة عن يمينها ثم عن اليسار حتى قطعت جذورها فأتت مقبلة تخط الأرض بساقها حتى سلمت على رسول الله ﷺ وشهدت له بالرسالة ، ثم بالعودة فعادت ، وحدثت أخرى مع أعرابي آخر فذهب ليدعوها ففعلت كما فعلت الشجرة الأولى ، فأمسك الأعرابي غصناً منها وأخذ يقودها كما يقود البعير ، ومنها ما أخرجه أبو نعيم عن بريدة قال : جاء أعرابي فقال : يا رسول الله جئتك مسلماً وأريد أن تدعو تلك الشجرة الخضراء فتأتيك ، فقال ﷺ تعالي ، فمالت الشجرة على أصولها يميناً وشمالاً حتى قطعتها ثم أقبلت على رسول الله ﷺ فقال لها النبي ﷺ بم تشهدين يا شجرة ؟ قالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، قال الأعرابي مرها فلترجع إلى مكانها فقال : ارجعي فرجعت إلى حفرتها التي كانت فيها [57] .

فلذلك قالت الشاعرة : ودعاها فاستجابت شجراً ، فقالت : شجراً ولم تقل شجرٌ، مع أن الاسم الذي يأتي بعد الفعل ينبغي أن يكون مرفوعاً لا منصوباً ، فكلمة شجراً هنا هي حال وليست فاعلاً ، أي أن النبي ﷺ دعا شجرة مغروسة في الأرض فأطاعته لما طلب ، حال كونها شجرة صماء بكماء لا عقل لها ليست محلاً للأمر والنهي ولم تجر العادة بوقوع مثل هذا منها ، فأتته تسعى ملبية نداءه ولم تتأخر ولم تماطل .

وأطاعته الرّواسي مثلما سبّحت في كفّهِ صُمُّ الحُصَي

==========================

الرواسي : الجبال ، صم الحصي : الحجارة الصغيرة التي توضع في الكف .

تقول الشاعرة : وكذلك لم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى الجبال الرواسي التي من عظمتها أن ثبت الله تعالى بها الأرض ، فقد قال علماء الجيولوجيا أن الجبل الذي نراه فوق الأرض ليس هو الحجم الحقيقي للجبل ، وإنما هو ثلث حجمه الأصلي وثلثاه الآخران غائصان في الأرض ، ويأخذ نفس الشكل أي بمعنى أن رأس الجبل الذي يكون في الأرض يكون رأسه الحادّ إلى الأسفل فيكون كبيراً من الوسط وصغيراً من الطرفين ، فيقع بذلك تثبيته للأرض ، وبالرغم من ذلك فإن الجبل أطاع النبي ﷺ ومن ذلك ما رواه الشيخان أن النبي ﷺ صعد جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فطرب الجبل بهذه اللفتة النبوية الكريمة أن شرّفه بالصعود عليه هو وأصحابه ، فكان لسان الحال من الجبل يقول: من مثلي في هذا اليوم ؟؟!! وقد شرفني الله تعالى وأكرمني كرامة ما مثلها كرامة بأن مسّتني قدم أكرم خلق الله عليه تعالى ، ومعه المصطفون الأخيار من أصحابه ، فلم يتمالك

[57] انظر المستدرك **190/4**، الأحاديث المختارة **214/6** مصنف ابن أبي شيبة **317/6** .

الجبل أن أخذته حالة من الطرب وشبه السكر فتمايل ورقص حتى تحركت الحجارة على ظهره وتدحرجت فركله النبي ﷺ برجله يقول له: اثبت أُحُد ما عليك إلا نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيدان، فسكن الجبل [58] فقال ﷺ أُحد جبل يحبنا ونحبه .

ولما أطاعه ﷺ الجبل الكبير كان من الأجدر أن تطيعه الحصى الصغيرة ، ولكن ليس بالحركة وإنما بالكلام ، فقد أخرج غير واحد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : كان النبي جالساً وحده فجئت حتى جلست إليه فجاء أبو بكر فسلم ثم جلس ثم جاء عمر ثم عثمان وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات ، فأخذهن فوضعهن في يده فسبّحن حتى سمعت لها حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في كف عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في كف عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، فقال رسول الله ﷺ هذه خلافة نبوية [59].

وشَكَوا جدباً وباستسقائهِ أُمطِرَ القومُ وصار الحيَّ حي

==============================

ومن عظيم جاهه ﷺ أن الله تعالى كان يجيب دعاءه فيما طُلب منه ، وقد كان الصحابة كثيراً ما يفزعون إلى النبي ﷺ يطلبون منه حاجاتهم وأن يكشف الله عنهم الكربات فيفرجها الله عنهم بدعائه ﷺ ومن هذه الكربات التي فرجها الله تعالى عنهم سقيا المطر بعد الجدب ، فقد عاش رسول الله ﷺ في جزيرة مترامية الأطراف صحراء قاحلة لا نبات فيها غالباً ، وكان غالب عيش الناس فيها على المواشي من الإبل والغنم ، وهذان الصنفان لا بد لهما من الماء للشرب ومن ثم العشب للرعي ، فكانت تصيبهم السنوات العجاف التي لا مطر فيها ، فلما رأى الصحابة ما أجراه الله تعالى على يد نبيه من شتى الإكرامات ومنها إجابة الدعاء فزعوا إليه ﷺ في رفع هذه المحن عنهم .

فلذلك قالت الشاعرة : أن الصحابة فزعوا إلى رسول الله ﷺ أن يسقيهم الله المطر فأجاب الله دعاءه وأغاثهم فمن ذلك: أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدّثنا عن شأن ساعة العسرة فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي مه على كبده ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إن الله قد عوّدك

---

[58] رواه البخاري **1344/3**، وابن حبان **415/14** وغيرهما بسند صحيح .

[59] رواه البزار في مسنده **431/9** ، والطبراني في الأوسط **245/4** وغيرهما .

في الدعاء خيرا ، فادع الله فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر [60].

وروى البيهقي في الدلائل عن أبي وجزة يزيد بن عبيد السلمي قال : لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أتاه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن والحر بن قيس وهو أصغرهم ، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث من الأنصار ، وقدموا على إبل لهم عجاف وهم مسنتون فأتوا رسول الله ﷺ مقرّين بالإسلام فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم فقالوا : يا رسول الله أسنتت بلادنا صلى الله عليه وسلم أي أجدبت) وأجدب جنابنا وعريت عيالنا وهلكت مواشينا فادع اللهَ ربك أن يغيثنا وتشفع إلى ربك ويشفع ربك إليك ، فقال رسول الله ﷺ سبحان الله !! ويلك أنا شفعت إلى ربي فمن ذا الذي ربنا إليه ؟ لا إله إلا هو العظيم ، وسع كرسيه السماوات والأرض وهو يئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد ، فقال رسول الله ﷺ إن الله ليضحك من شَفَقِكم وقرب غياثكم ، فقال الأعرابي: أوَ يضحك ربنا يا رسول الله ؟ قال: نعم فقال الأعرابي: لن نعدم يا رسول الله من ربٍ يضحك خيراً ، فضحك رسول الله ﷺ من قوله ، فقام رسول الله ﷺ وصعد المنبر وتكلم بكلمات ورفع يديه حتى رئي بياض إبطيه وكان مما حفظ من دعائه ﴿ اللهم اسق بلدك وبهيمتك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت ،اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً مَريئاً مَريعاً طبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار ، اللهم سُقيا رحمةٍ لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء ﴾ فقام أبو لبابة بن عبد المنذر فقال : يا رسول الله إن التمر في المرابد ، فقال رسول الله ﷺ اللهم اسقنا ، فقال أبو لبابة : التمر في المرابد ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عُرياناً يسدّ تعلب مربده بإزاره ، قال: فلا والله ما في السماء من قّزَعةٍ ولا سحاب ، وما بين المسجد وسِلَع من بناء ولا دار ، فطلعت سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت وهم ينظرون ، ثم أمطرت فو الله ما رأوا الشمس سبتاً صلى الله عليه وسلم أي سبعة أيام) وقام أبو لبابة عُرياناً يسدّ ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج التمر منه ، فقال الرجل : يا رسول الله يعني الذي سأله إن يستقي لهم هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر ورفع يديه حتى رئي بياض إبطيه ثم قال ﴿ اللهم حوالينا ولا علينا ، على الآكام والظِّراب وبطون الأودية ومنابت الشجر ﴾ فانجابت السحابة عن المدينة كانجياب الثوب[61]

---

[60] رواه ابن خزيمة في صحيحه **53/1** ، وابن حبان في صحيحه **23/4** ، وغيرهما بسند صحيح .

[61] انظر مجمع الزوائد **215/2**، والسنن الكبرى للبيهقي **354/3**، والمعجم الصغير للطبراني **236/1** .

قلت : بعد عودة رسول الله ﷺ من غزوة تبوك وفد عليه وفد بني فزارة ليعلنوا إسلامهم، فلما سألهم رسول الله عن حال بلادهم وهل هي خصب أم جدب فقالوا: إنها جدباء والمواشي هلكت من قلة العشب ، والعيال اصابهم العري كناية عن الفقر ، واستغاثوا برسول الله ﷺ أن يستسقي لهم ، فمما قاله قائلهم : ويشفع ربك إليك ، فتعجب النبي ﷺ من قوله وقال معلّماً له وللأمة من بعده: أنا أشفع لكم إلى ربكم لأنه هو صاحب الأمر سبحانه وبيده مقاليد الأمور وهو الذي ينزل الغيث من بعد قنوط الناس وينشر رحمته ، فمن هو الذي أعظم من الله حتى يشفع الله إليه ؟! إنه بالتأكيد لا أحد، لأنه لا إله إلا هو العظيم، ومن دلائل عظمته أن الكرسي خلقاً من خلقه وقد وسع السماوات والأرض وهن بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، ومع ذلك هو خاشع يرتجف من عظمة الله خوفاً وإجلالاً له حتى أن له أطيطاً صلى الله عليه وسلم وهو صوت الرحل الخشبي الذي يوضع على الجمل) من شدة خشيته، لا كما يفهمه بعض المتطفلين على موائد العلم من أن الله تعالى جالس على الكرسي، ومن ثِقل الله تعالى عليه يئط ، ودليل ذلك أن النبي ﷺ أكرم خلق الله على الله كان يُسمع لقلبه أزيز كأزيز المرجل صلى الله عليه وسلم وهو صوت الماء الذي يغلي في القِدْر) من خشية الله تعالى ، فكذلك الكرسي يُسمع له أطيط من شدة خشيته منه تعالى .

فلما استغاث الأعرابي بالنبي ﷺ بادر بالدعاء فسمع أبو لبابة ذلك وقد كان جمع تمره في المربد صلى الله عليه وسلم وهو مكان خاص لتجفيف التمر يشبه البيدر عندنا لكن يحاط باللبِِن المعمول من الطين وُيجعل له باب ليخرج منه التمر) فخشي على التمر من السيلان مع الماء فقال: التمر في المرابد يا رسول الله أي أجّل الدعاء حتى نأخذ الحيطة بسد باب المرابد ، فأراد النبي ﷺ أن يداعبه فقال : اللهم اسقنا وأنزل المطر علينا حتى يقوم أبو لبابة ليسد باب المربد بإزاره ، وأبو لبابة لم يكن عنده إلا ذلك الإزار ، وهذا يعني أنه سيبقى عرياناً، فكان ما دعا به رسول الله ﷺ فأنزل الله المطر المتواصل الغزير حتى خشي أبو لبابة على التمر من الانسياح مع الماء فقام وقد خلع إزاره ولم يبق عليه إلا اليسير من اللباس من السراويل وغيرها فسدّ باب المربد بإزاره ، فمكث المطر سبعة أيام متواصلات، فلما رأى الأعرابي الذي استغاث بالنبي ﷺ كثرة المطر وتواصله خشي على أهله من الغرق فاستغاث بالنبي ﷺ مرة أخرى فدعا ﷺ أن تكون السحابة خارج المدينة وعلى بطون الأودية ومنابت الشجر حتى ينبت العشب ويخضر الشجر ، فانجابت السحابة عن المدينة حتى صارت حولها كالإكليل وخرج الناس في الشمس .

لذلك قالت الشاعرة : إن الله سقى الناس المطر بدعائه ﷺ حتى عادت الحياة للمناطق الميتة من البساتين والأودية وأماكن الرعي .

ودعا اللهَ تعالى ربَّه   في أُمورٍ فأُجيبت يا بُنَي

==================================

تقول الشاعرة : لم يقتصر الأمر بإجابة الدعاء له ﷺ بنزول المطر فحسب ، لكنه تعداه إلى أمور كثيرة أغاث الله الناس به وبدعائه ﷺ فمن ذلك: ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: أدركني رسول الله ﷺ يوم ذي قَرَد فنظر إليّ وقال: اللهم بارك له في شعره وبشره ، وقال: أفلح وجهك قتلتَ مسعدة ؟ قلتُ: نعم قال: فما هذا الذي في وجهك ؟ قلتً : سهم رُميتُ به قال : فادنُ فدنوتُ منه فبصق عليه فما ضرب عليّ قط صلى الله عليه وسلم أي ما آلمني) ولا قاح، ومات أبو قتادة ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمس عشرة سنة [62].

ومن ذلك ما رواه البيهقي عن محمد بن سيرين أن امرأة جاءت بابن لها إلى النبي ﷺ فقالت : هذا ابني وقد أتى عليه كذا وكذا وهو كما ترى فادع الله أن يميته فقال ﷺ أدعو الله أن يشفيه ويشبّ ويكون رجلاً صالحاً فيقاتل في سبيل الله فيُقتَل فيدخل الجنة، فدعا له رسول الله فشفاه الله وشبّ وكان رجلاً صالحاً وقاتل في سبيل الله فقُتل .

وأخرج البيهقي بسنده إلى عبد الله بن رواحة قال : يا رسول الله إني أشتكي ضرسي آذاني واشتد عليّ ، فوضع رسول الله ﷺ يده على الخد الذي فيه الوجع وقال : اللهم أذهب منه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المكين عندك سبع مرات ، فشفاه الله قبل أن يبرح .

وأخرج أبو نُعيم عن الوازع أنه انطلق إلى النبي ﷺ بابن له مجنون ، فمسح وجهه ودعا له فلم يكن في الواد أحد بعد دعوة النبي ﷺ أعقل منه

وأخرج غير واحد عن حنظلة بن حذيم أن النبي ﷺ مسح رأسه بيده وقال : بورك فيك ، قال الذيّال : فرأيت حنظلة يؤتى بالشاة الوارم ضرعها والبعير والإنسان به الورم فيتفل في يده ويمسح بصلعته ويقول: بسم الله على أثر يد رسول الله ﷺ فيمسحه ثم يمسح موضع الورم ، فيذهب الورم [63].

ولنقف عند هذه الحادثة قليلاً : وهي أن النبي ﷺ دعا لحنظلة بالبركة ، فكان من أثر هذا الدعاء أنه كان يؤتى بالبعير المريض والشاة والرجل وغير ذلك من المرضى لا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان ، فيقولون إنك رجل مبارك بدعوة رسول الله ﷺ فامسح موضع المرض فيقول: نعم فيتفل في يده ثم يمسح المكان الذي مسته يد رسول الله ﷺ من جسمه ألا وهو صلعته ، ثم يقول بسم الله على أثر يد رسول الله ﷺ فيمسح مكان الورم أو الألم فيبرأ لحينه ، فدعوة النبي ﷺ

---

[62] رواه الحاكم في المستدرك 546/3 .

[63] انظر هذه الآثار في المواهب اللدنية للقسطلاني.

تجاوزت الرجل حتى صار يرقي المرضى بأثر يد رسول الله ﷺ وبركة دعوته له .

كنزُ علمٍ كلُّ علمٍ في الورى   قطرةٌ من بحرهِ لا من سُمَي

=================================

انتقلت الشاعرة إلى بعض صفات النبي ﷺ ألا وهو العلم ، وبدأت بع لشرفه على غيره من الصفات ، مع أن كل صفاته شريفة ، لكن قد يكون بعضها أفضل من بعض، فلذلك امتدح الله تعالى العلماء بقوله ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾صلى الله عليه وسلمالزمر: 9) وقال مخاطباً رسوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْما ﴾ صلى الله عليه وسلمطه: 114) ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ صلى الله عليه وسلمفاطر: 28) ﴾ وقد تسمى ربُّنا عز وجل بهذه الصفة وهي العلم فقال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ صلى الله عليه وسلمالأنعام: 73) وقال ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ صلى الله عليه وسلمالبقرة: 137) ﴾ وقد اختصم العقل والعلم فقال العقل : أنا أفضل لأن الله عُرف بي، وقال العلم: أنا أفضل لأن الله اتصف بي في الكتاب، فوافه العقل واعترف له بالفضل ونظم بعضهم ذلك فقال :

عِلْمُ العليم وعقْلُ العاقلِ اختلفا   مَن ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلمُ قال أنا أحرزتُ غايتـــه   والعقل قال أنا الرحمنُ بي عُـرفا
فأفصح العلمُ إفصاحاً وقال له   بأيـنا اللــهُ في فرقانـهِ اتصفــــا
فبان للعقلِ أنّ العلمَ ســــيدُهُ   فقبّل العقلُ رأسَ العلمِ وانصرفا

ولذلك امتدحت الشاعرة عليها رحمة الله سيدَنا رسول الله ﷺ بقولها : هو كنز من العلوم ، ولم تقل الشاعرة بحر من العلوم مع أنه ﷺ بحر ، حتى تبين أن علمه ﷺ من لدن حكيم خبير ، لم يكن لأحد من البشر عليه منّة بتعليمه أو تأديبه، ومعلوم أن طالب العلم النجيب يرتفع قدره برفعة معلّمه ، ويزيد علمه بسعة علوم أستاذه ، وعلم الله تعالى ليس له حدّ ، والله تعالى ليس فوقه أحد في المملكة لأنه هو الرب الإله سبحانه وتعالى، لذلك عظُم قدْرُ النبي ﷺ من هاتين الناحيتين بالنسبة لعلمه ، فوسع علمه حتى وسع علوم الأولين والآخرين ، بل إن علوم الأولين والآخرين جزءٌ من علومه ﷺ وقد افصح عن ذلك سيدنا رسول الله ﷺ في غير ما حديث صحيح منها :

ما رواه البخاري بسنده عن سيدنا عمر قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم [64] .

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب عنه ﷺ في خطبته من الفجر إلى الغروب وفيه : فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا [65].

---

[64] صحيح البخاري **1166/3** .

[65] صحيح مسلم **2217/4** .

وروى الشيخان عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً سيكون في مقامه إلى قيام الساعة إلا حدّث به [66] .

فلذا لا ينطقُ إلا بالهُدى حكمةً موجزةً من غير عَي

==========================

تقول الشاعرة : بما أن الإنسان ليس من طبعه وشيمته الإخبار بالمغيبات ، وقد أخبرنا النبي ﷺ عن هذه المغيبات التي قرأنا ، لذلك علمنا أن هذه العلوم التي تكلم بها ﷺإنما هي فيضٌ أفاضه الله تعالى عليه وعلمه إياه إما بوساطة الوحي وهو جبريل ﷺ أو إلهاماً وهو ما يعبّر عنه بالعلم اللدني، وهو علم يهبه الله تعالى من يشاء من عباده بلا واسطة ، من معاني قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ صلى الله عليه وسلمالبقرة: 282) فمن هذا المنطلق فإن نبينا ﷺ لا ينطق إلا بالحكمة والهدى ، والحكمة هي أن تقول المقال المناسب في الوقت والمكان المناسب من غير تطويل ممل أو تقصير مخل ، وقد زاد الله تعالى نبيه ﷺ أن آتاه جوامع الكَلِم وهي المعاني الكثير في الكلمات القليلة ، لذلك قال ﷺ فضلت على الأنبياء بست خصال ﴿ أحلّت لي الغنائم ولم تحل لنبي غير وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، وجُعلت خاتم النبيين ، وأوتيتُ جوامعَ الكلم ،،،،الخ ﴾ لذلك كان كلامه ﷺ قليلاً من غير جهل ومن غير نقصان في المعنى وإنما هو من الإعجاز اللغوي ولنقف قليلاً على بعض حِكَمِهِ ﷺ التي حوت المعاني الغزيرة في كلمات قليلة لنعرف عن كثب حقيقة ما قلناه قال ﷺ :الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . العلماء أمناء الله في الأرض * السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم * الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدِم على الله بِشَرّ * الشيخ شابٌّ في اثنتين : حب كثرة المال وحب طول الحياة * صنائع المعروف تقي مصارع السوء * المرء مخبوء تحت لسانه * لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعرفوا كنه عقله * من أصبح معافى في بدنه آمناً في سِربِهِ عنده قوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا بأسرها *السلام تحية لملتنا وأمان لذمتنا . جمال الرجل فصاحة لسانه * لا يفلح قوم تملكهم امرأة .* إذا هممتَ بأمر فتدبّر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غياً فانتهِ عنه ،،،.

وهو نورٌ وسراجٌ فلذِا إن مشى في الشمس لا يقفوه فَيّ

================================

بدأت الشاعرة بعرض بعض خصائص المصطفى ﷺ الجسمية والتي أوردها كثير من الحفاظ كالجلال السيوطي والبيهقي والقسطلاني وأبي نعيم .

---

[66] المصدر السابق .

تقول الشاعرة : لذا ومن هذا المنطلق الذي حكيناه عن النبي ﷺ بما مرّ ، علمنا أنه طراز فريد في الوجود ، وهو الدرة اليتيمة الذي آتاه الله من المحاسن وشتى الكرامات ما جعله جوهراً فريداً لا يقبل القسمة ، فمن هذه المحاسن أن جعله الله تعالى نوراً إذا مشى في الشمس لا يقع له ظل على الأرض قال الله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ صلى الله عليه وسلمالمائدة:15) فقد قال المفسرون أن الكتاب هو القرآن الكريم والنور هو سيدنا محمد ﷺ فإذا كان كذلك كيف يكون له ظل ؟؟!! وإنما الظل من لوازم الكثائف والأجسام الترابية الكثيفة .

إن مشى في الصخرِ لانَ الصّخرُ و في رمالٍ لا يُرى إثْرُ الوُطَي

==================================

ومن خصائصه ﷺ أنه كان إذا مشى على الصخرة الصماء تلين تحت قدميه الشريفتين، وأنكر قسم من العلماء هذا لأنه لم يرد لنا بالدليل الصحيح عنه ﷺ والجواب: أن مثل هذه الخصائص تساهل العلماء في إسنادها لأنها ليست تشريعاً وإنما هي من جملة الإكرامات الإلهية لنبيه ﷺ فلا يشترط فيها أثر صحيح الإسناد ، وقد استدل المثبتون لهذه الخصائص أن سيدنا محمداً ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق وأفضل الأنبياء والرسل ومن جملتهم أبونا إبراهيم ﷺ ومعلوم أن الله تعالى أعطى أبانا إبراهيم الآية التي ذكرها في كتابه بقوله ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ صلى الله عليه وسلمآل عمران:97) وقد ذكر المفسرون أن المقام هو حجر قام عليه أبونا إبراهيم ﷺ عندما رفع القواعد من البيت الحرام ، فأثرت قدماه الشريفتان في الحجر ولم تزل اثر القدمين إلى يومنا هذا ، لذلك قالوا : إذا كان مثل هذه الخصائص أعطيت لأبينا إبراهيم ﷺ ألا يعطى مثلها لسيدنا محمد ﷺ: لذلك قال العلماء: ما أعطى الله لنبي كرامة لنبي من الأنبياء إلا وأعطى سيدنا محمداً ﷺ أفضل منها، وأن هذه الأماكن التي جاءت بها الإخبارات بتأثير القدم فيها تلقتها الأمة بالقبول وجاء الإجماع عليها على مرّ السنين المتطاولة، وقد أفردت لهذه الآثار باباً في كتابي ﴿إعلام الأنام بفضائل وأحكام الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ﴾ وسأفرد لها بحثاً مستقلاً إن شاء الله بعنوان ﴿ الآثار النبوية في الديار الإسلامية ﴾ أسأل الله تعالى أن يوفقني لإكماله .

قلت: ومن العلماء الذين قالوا بثبوت هذه الآثار وصحة نسبتها إلى النبي ﷺ الحافظ شمس الدين بن ناصر الدمشقي حيث قال في معراجه المسجّع :

ثم توجها نحو صخرة بيت المقدس وعمّماها * فصعدا من جهة المشرق أعلاها*
فاضطربت تحت قدمي نبينا ولانت * فأمسكتها الملائكة لمّا تحركت ومالت .

وقال الحافظ القسطلاني في المواهب اللدنية: كان صلى الله عليه وسلم إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه كما هو مشهود قديماً وحديثاً على الألسنة ونطق به الشعراء في منظومهم ، والبلغاء في منثورهم مع اعتضاده بأثر قدمي إبراهيم ﷺ في حجر المقام .

وقال السيد السمهودي في وفاء الوفاء: ومسجدان قرب البقيع أحدهما بمسجد الإجابة والثاني يُعرف بمسجد البغلة، فيه أسطوان واحد وهو خراب ، وحوله نشْزٌ من الحجارة فيه أثر يقولون إنه أثر حافر بغلة النبي ﷺ.

قال الإمام النووي في التهذيب: كان أيوب ﷺ ببلاد حوران وقبره مشهور عندهم بقرب قرية نوى عليه مشهد ومسجد وقريته موقوفة على مصالحه ، وعين جارية فيها أثر قدم يقولون إنها أثر قدمه .

وقال الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى : قال أبو نُعيم : إنه قد لُيّنت الحجارة لنبينا محمد ﷺ وصم الصخور ، ولما استتر من المشركين في أُحد مال برأسه إلى الجبل حتى أدخل رأسه فيه ، وذلك باق ظاهر لا يخفى .

وخلاصة الأمر : أن المنكرين هذه الآثار إنما أنكروا ذلك تعصباً ، وغالب استشهاداتهم بأقوال ابن تيمية ، ومعروف أن ابن تيمية كان يحمل لواء النصب والعداء للنبي ﷺ وآل بيته الكرام ، وقد شنّع عليه العلماء غالب أقواله تلك .

ومن الآثار التي نسبت إلى النبي ﷺ بتأثير القدم الشريفة فيها :

- حجر في الطائف اتكأ عليه النبي ﷺ عند عودته منها فأثر فيه المرفق الشريف ، وبني عليه مسجد عُرف بمسجد الكوع لا يزال إلى الآن .
- أثر القدم الشريفة في حجر يوجد في متحف توب كابي في استانبول .
- أثر القدم الشريفة في حجر يوجد في مسجد الكريمية بحلب ، وهو في قبلة المسجد الذي يقع في باب قنسرين ، وقد أفاد أهل البلدة أنهم يشعرون بروحانية عجيبة في هذا المسجد تختلف عن باقي مساجد حلب ، مما يؤكد صحة نسبة الأثر لجناب النبوة .

فتفانَى عنكَ في شرعِ الهوَى	**وبهِ صَرِّحْ ودعني من كُنَي**
وتَعَشَّقْ وتمَزّقْ والْزمَنْ	**حُبَّ طه وازْوِ حُبَّ الغيرِ زي**
فهو محبوبٌ وغاياتُ المنى	**في يديه وهو لا يبخلْ بشي**

==

تفانى : إفنَ أي غب عن وجودك، شرع الهوى : مذهب الحب ، صرح : أعلن، الكني ،التمويه والتعمية ضد التصريح ، ازوِ : أبعد .

تقول الشاعرة : من أجل ما قلت لك من خصائص الحبيب ﷺ وعلو شأنه ورفعة مكانته عند ربه ، وأنه طراز فريد في نوعه ، من أجل هذا وغيره افن أيها المؤمن المحب لجناب نبيك ﷺ عن كون نفسك وعن كل الموجودات بحبه.

والفَناء في مصطلح الصوفية أن يبلغ المحب مرتبة ومقاماً في الحب بحيث يغيب عن نفسه بما يشاهده من جمال محبوبه ، وهذه أعلى مرتبة في الفناء، لكن يسبق ذلك أن يستهلك المحب إرادته بإرادة محبوبه، ولا يحب إلا ما أحبه، ولا يفعل إلا ما أمره به، وهذا كمال الإيمان صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

وقد ورد مثل هذا عن رجل كان يحب شخصاً ، فألقى المحبوب نفسه في النهر فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال له : أنا وقعت في الماء فما أوقعك خلفي ؟؟ فقال : غبت بك عني فظننتُ أنك أني ، وقد ورد كذلك عن مجنون ليلى عندما أرسلت إليه رسولاً فقال: أنا رسول ليلى إليك ، قال: فما تريد ؟ قال: يدك قال: معاذ الله أن أفعل، والسبب في عدم قبول المجنون ذلك أنه كان يرى يده أنها عين يد ليلى ، فكيف يقطع يد محبوبته .

لذلك قالت الشاعرة : غب أيها المحب عن نفسك وعن كل شيء بما تشاهده من جمال الحبيب ، فإن ذلك جائز في شرع الهوى ومذهب المحبين ، وصرح بمحبته فإن ذلك مما يقربك منه ﷺ ويرفعك عند خالقك لأنه ﷺ يقول : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده ونفسه التي بين جنبيه [67] لذلك دع عنك الكناية والتعمية عن الخلق في محبتك إياه وصرّح بها بين الخلق حتى تحظ منه بالمعية الحقيقية المرء مع من أحب، والزم هذه المحبة واطلب أسبابها حتى يتحفك الله بها وطهر قلبك من محبة غيره ، ولا تدع في قلبك فسحة لغيره لأنه غيور لا يقبل معه غيراً ، فهو أجلّ من أن تجعل له نظيراً أو شريكاً في هذه المحبة ، فهو أهل أن تحبه وهو أهل لكل احترام وأدب، والإجلال له والتعظيم غاية ما يبلغه المسلم ، لأنه حبيب الله تعالى، وقد أقامه الله مقام نفسه وأمر المؤمنين بتمجيده وتقديسه وتعظيمه فقال ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً* إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً *إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً صلى الله عليه وسلمالفتح:7ـ10)

فبين الله تعالى علة إرساله فقال: لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعززوه أي تنصروا محمداً وتسبحوه: أي تكثروا من مدحه والصلاة عليه، وتوقروه وهو غاية الاحترام والتعظيم، ويجمع ذلك كله المحبة، فإذا حصلت المحبة لعبد أوجب له ذلك كله لأنه نائب عن الله تعالى وخليفته في ملكه وجعله أميناً على خزائن عطائه ومدده ، وحقيقة بيعته إنما هي بيعة لله، فأعطاه الله كل ما ينفع عباده في الدنيا والآخرة ، بل لا سبيل

[67] رواه البخاري في صحيحه **2445/6** .

لنفع العباد إلا من طريقه،إذاً بهذا أصبح بيده عليه الصلاة والسلام غاية ما يتمناه رجل، والنبي ﷺ كريم بل لا يجاريه مخلوق في الكرم والعطاء وكما قيل :

ما قال لا قط إلا في تشهده ولولا التشهد كانت لاءه نعم

لذلك لما كان الناس يطلبون منه ﷺ ما يؤملون وكان يتألم عندما لا يجد في بيوته شيئاً يعطي الناس ، فقيل له لِمَ تعذب نفسك يا رسول الله ؟ قال : إنهم يأبون إلا أن يسألونني ويأبى الله ليَ البخل [68] هذا في العطاءِ الحسي وفي الدنيا عندما كان ﷺ يطوي اليوم واليومين بلا طعام ، ويعصب الحجَر والحجرين على بطنه الشريف من شدة الجوع فكيف به الآن وقد أفضى إلى الله ودار كرامته ، وأعطاه مفاتيح خزائنه:

خزائن رحمتي ونعيم ملكي بحكمك فاقض فيها ما تشاء

فلذلك أيها المحب لا تخش شيئاً ما دام أنك تحب المصطفى ﷺ فهو الكريم المعطاء ، وهو المحب لأمته وقد أعطاه الله مفاتيح خزائنه فما تظن أنه فاعل إذا ما طلبت منه شيئاً ؟؟؟؟؟؟

وأهم أسباب هذه المحبة هي باتباع سنته ومن سنته كثرة الصلاة عليه ﷺ فبالصلاة عليه تنال محبته ، فإن استطعت أن تصلي عليه ألفاً كل يوم فحسن .

ومن الأسباب الداعية إلى محبته إدمان مطالعة سيرته العطرة حتى تتعرف على كمال أخلاقه ، فإذا ما اطلعت عليها قادتك إلى اتباعه فيما تستطيع منها ، وبالتالي يحبك الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ صلى الله عليه وسلمآل عمران:31) .

ومن تلك الأسباب أيضاً كثرة زيارته في المدينة ، وذلك بعد أو قبل أدائك مناسك الحج أو العمرة ، فتمكث الساعات الطويلة في مسجده الشريف وترطب لسانك بالصلاة عليه مع الحضور ، فيمدك الله بالمحبة .

وأهم هذه الأسباب كلها صحبة أحبابه ﷺ ألا وهم من قال الله تعالى فيهم ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ صلى الله عليه وسلمالكهف:28) لأن الجليس يستمد من جليسه ، فإذا ما جالست هؤلاء القوم سرت فيك أمدادهم وأفاض الله عليك مما في بواطنهم ، ألا ترى ما قاله حنظلة عندما سأله أبو بكر رضي الله عنهما: كيف أصبحت يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة! قال: وكيف ؟ قال: نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار وكأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عنده وعافسنا الأزواج والضيعات

---

[68] رواه الحاكم في المستدرك 109/1 .

نسينا كثيرا ، فلما ذكرا ذلك للنبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطرقات [69] لذلك صارت مجالسة القوم من أكبر الأسباب الداعية لمحبته ﷺ لما يفيضه الله على سرك من الأنوار بمجالستهم وبكثرة الصلاة عليه ﷺ

حُسْنُهُ بهجَةُ عيني وحُلا ذكرِهِ الطَّيِّبِ حَلْوى مسمَعَي

==============================

بعد ما دعت الشاعرة الناس إلى حبه ﷺ بادرت إلى نفي ما قد يتسرب إلى الفِكر من أنها تدعو الناس إلى محبته ﷺ وهي عنها بمعزل ، لذلك شرحت بعد ذلك حالها في محبة النبي ﷺ فقالت: حُسنُ النبي ﷺ وجماله بهجة عيني تتمتع برؤيته ، وذكره الطيب أشهى من كل شهي وأحلى من كل حلو ، فإذا ما بدى لي جماله أصير كلي عيناً مبصرة وإذا ذُكر فكلي أذنٌ سامعة لشدة ما يقع في الضمير من محبته وكما قيل :

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين وإن هي نادتني فكلي مسامع

وهنا يُستَهلَك المحب في محبوبه، فيغيب عن وجوده بوجود الحبيب، فلا يبقى له سمع إلا به، ولا بصر إلا به، ولا إرادة إلا بإرادته، وكما قال تعالى في الحديث القدسي فيما يرويه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه [70].

وهذه حالة لا تدرك إلا بالذوق كقوله عليه الصلاة والسلام صلى الله عليه وسلمذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً000) فالأمور الذوقية لا سبيل إلى تفسيرها باللسان، وكذلك أن يكون الله سمعك وبصرك ويدك لا تدرك إلا بالذوق والوجدان.

روحُ روحي سُؤلُ أربابِ النُّهَى سِرُّ سرّي والضّيا من بَصَرَي

==================================

تابعت الشاعرة مقالتها عن مدى ما بلغت منها محبة النبي ﷺ فقالت : وهو روح روحي، أي إن الأرواح هي سر الأشباح التي لولاها ما قامت في الأشباح حياة ، فالجسم بدون روح جثة هامدة لا حراك فيها ، وهو بدونها جيفة لا قيمة له البتة، وكذلك فإن محبة النبي ﷺ بالنسبة إليّ كنسبة الروح إلى الجسم لا قيمة لي ولا قدرة لي على العيش، فهو روحي بل روحٌ لروحي، لأن روحي إذا لم يمدها

---

[69] رواه مسلم في صحيحه **2106/4** .

[70] صحيح البخاري 2384/5 .

الله بالنور الفائض منه ﷺ صارت روحاً مظلمة وبالتالي تصبح من حطب جهنم ، وهو عليه الصلاة والسلام ليس لي كذلك فحسب بل هو كذلك لكل عاقل ولكل عارف بالله تعالى، وهو أيضاً سر سري أي أن النبي ﷺ هو السر الذي لولاه لم أوجد ، ولعلها تشير إلى الحقيقة المحمدية المتقدم خلقها على خلق الأشياء ، فهو بهذا المعنى أصبح ﷺ سر الوجود بأسره ، وفي حديث أبينا آدم عندما أكل من الشجرة قال: اللهم إني أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي قال: وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ قال: إنك لما نفخت فيّ من روحك نظرتُ فإذا مكتوب على ساق العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك قال: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ ولولاه ما خلقتك [71] فلذلك هو ﷺ سر الوجود وروحه الذي لولاه ما خُلق .

مَن لِعيني أن تُشاهدَ حُسْنَهُ وأرى فوقَ ثراهُ شَـــفَتي
وأُعَفِّرُ في ثرى أعتـــابِهِ جنــةِ العشّاقِ كلتا وجنتَي
وأُغنّي طَرَباً في بتابــــــه وهنا بسطُ الوفا في قبضتّي

================================

تحسّرت الشاعرة قائلة: هل من الممكن أن أرى نفسي في مدينته الطيبة المباركة وأكحل عيني برؤية آثاره المباركة الشريفة ، فإني إن أكرمني الله تعالى بذلك سأقبّل الثرى من أعتابه وآثاره التي بوركت المدينة من أجلها وأصبحت شفاءً ، وسأعفر خديّ في ذاك التراب الذي داسه ﷺ بقدميه الشريفتين فصار بذلك جنة يتنعم بها المحبون لجنابه السامي المبارك ، وبعد ذلك سأغني طرباً وأنثر الدر في مدحه ﷺ نثراً وشعرا ، وسأجند كل طاقتي وما آتاني الله من بلاغة وأوظفها في مدحه وأقول: لقد أنعم الله تعالى عليّ بما أكرمني به من زيارة سيد الوجود، وها أنذا الآن في حضرته أقبل التراب من مدينته الشريفة العطرة ، وأعفر بل أضمخ خديّ من عبير مسكه الذي فاض على تراب المدينة فأصبحت مسكاً :

وعلى الجفون إذا هممتَ بزورة يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
فلأنت أنت إذا حللت بطيبة وظللت تركع في ظلال رباها
لا تحسب المسك الذكيّ كتربها هيهات أين المســك من ريّاها
لا كالمدينة منزل وكــــفى بها شــرفاً حلول محمد بفِنـــاها

وأقول :

يا سائقاً يطوي السباسب والثرى مهــلاً فإن الخير في أم القرى
لا تنزلنّ بغير طيبة إنهــــا سطعت بأنوار الرسول كما ترى
عجباً لتربتها تداس ولــــو درى الماشي عليها ما داس مسكاً أذفرا

وإذا ما وقفت عند مقامه الشريف أرسل عينيّ فرحاً به وأقول:

أقــولُ والدمع من عينيّ منسجم لمـــا رأيت جدار القبر يُستلَم
والناس يغشـــونه باك ومنقـــطع مـــن المهـــابة أو داع فملتـــزم
فما تمالكت أن ناديت مــن حُــرق في الصدر كادت لها الأحشاء تضطرم
يا خير من دُفنت في الترب أعظمه فطـاب من طيبهن القــاع والأكــم

---

[71] رواه الطبراني في الأوسط 313/6 .

نفسي الفـداء لـروض أنت ساكنه — فيـه الـعفـاف وفيه الـجود والكـــرم
وفيه شمس التقى والدين قد غربت — من بعدما أشرقت من نورها الأمـــم
حاشا لوجهك أن يبلى وقد هُديت — في الشرق والغرب من أنواره الأمم
لئـن رأينـاه قـبراً إن باطـــــــنه — لـــــروض مـن رياض الخلد تبتسم
طافت بـه مـن نواحيــــه ملائكة — تغـــشاه فــــي كل ما يوم وتزدحم
لـو كنت أبـصره حياً لقلت لـــــه — لا تـمـش إلا على خدي لك القدم

فإذا ما بلغت هذه الأماني فإني في الحقيقة قد حزت الخير كله في الدنيا والآخرة ، وأصبحت مفاتيح العطاء في قبضتي ، لأني أصبحت ضيفة رسول الله ﷺ ومن عادة العرب أنهم يكرمون الضيف ، فكيف بسيد العرب والعجم !!! فإذا صار هذا فإني لن أقبل من ضيافتي إلا بما أريد وأؤمل .

أسعَفَت ألـطـــافُ طـه المصطَفى — بـمـرادي يـا فـؤادي قم تَـهـــي
مُــدّني منه بفيضٍ شامــــــلٍ — فـالمُنى من راحـتي فـي راحتــَي

======================================

أسعفت: أسعف المريض إذا عاجله بالدواء، وأسعفته بالحاجة إذا قضيتها له،ألطاف: المدد النبوي،تهي: تجهز،راحتي: الأولى الراحة ضد التعب، والثاني مثنى راح وهي الكف.

واصلت الشاعرة كلامها على ما يؤول أمرها إذا ما زارت المدينة المنورة ، وهذا من أنواع التخيلات التي يتخيلها المحبون، حيث أنهم تارة يتصورون أنهم يجلسون مع الحبيب ويتجاذبون أطراف الحديث معه ويشكون إليه ما يجدونه من حرارة الشوق، وتارة يتخيلون أن الحبيب قد زارهم، وتارة يتخيلون الرياح ذاهبة لديارالحبيب فيزجون معها السلام، وتارة يتخيلون أن البرق اللامع قد حمل لهم طيف حبيبهم وهكذا، فشاعرتنا لم تذهب للحج أو الزيارة لكنها تخيلت أنها هناك وأنها أصبحت في حضرة الحبيب وفي بلده ، فهي بشعورها هذا تشرح لنا ما ستحصله من مثل هذه الزيارة ولو بالخيال فتقول: لقد أسعفت مواهب الحبيب وعطاياه ما أؤمله منه ، وهذا هو مدده يتدفق من مقامه الشريف على قلبي ، فأتحفني الله بمناي وحقق آمالي ، فيا فؤادي قم مستعداً لتلقي هذا الفيض الأقدس الذي أفاضه الله عليك من حضرة المصطفى، فقد جاءك المدد النبوي، فتلقاه واشف منه غليلي وظمأي لرؤيته ، فإن مناي وأملي بأن ألقى الراحة الدنيوية والأخروية وهذا ما أصبو إليه فقد أصبح الآن في قبضتي وتحت حكمي .

يا رسـولَ اللــهِ يا خيرَ الورى — مـا لـقـلـبي عن هُيامي فيكَ لَي
لـيس يـخلـو منك يا كُلَّ المنُى — خـاطري والحـالُ إحدى حُـجَّتَي

================================

ما زالت الشاعرة في تخيلها ذاك وتظن أنها أمام الحجرة النبوية وأنها أصبحت تناجيه، والسلام على رسول الله ﷺ أول ما يفعله المسلمون إذا زاروا النبي ﷺ في المدينة فيسلمون عليه ويحيونه بالنبوة والرسالة، ويعترفون له بالفضل

والمعروف، ثم يسلمون على صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وبعدها يعود المسلّم فيقم تجاه الوجه الشريف، ثم يبدأ بمناجاته فهي تخيلت ذلك فتقول: يا سيدي يا رسول الله يا خير خلق الله وأكرمهم على ربهم ، إن قلبي قد هام بحبك ولم يصرفه عنه صارف لأنه لم يسمع من غيرك ولم ير لغير ذكرك في قلبه أو أذنه مكاناً ، وقلبي ليس فيه محلاً لغيرك فقد تملكته محبتك، فأنت جليسه في النوم واليقظة والخلوة والجلوة ، وهذا الحال الذي أشرحه لحضرتك قد يكون شافعاً لي عندك وهو برهان لي وحجة على محبتي لك .

وبِرَغمي يا حبيبي أن أُرى   لسوَى طيبَةَ أُزجي قـدَمَي
يا حياةَ الروحِ يا رَيَّ الظَّما   يا حبيبَ اللهِ يا ساقي الحُمَي يا

==================================

وإني لم يسبق لي أن تشرفت بزيارة مدينتك التي جعلها الله مسكناً لجنابك، وقد عملت كل ما بوسعي حتى حظيت بهذه الزيارة التي ما جال بخاطري يوماً أن أرى شرفاً لغيرها، وها قد أكرمني الله بها بعد الشدة والمعاناة من أجلها ، فيا حياة روحي ويا سرها التي قامت به، ويا حبيب الله دون سائر خلقه، تلك الرتبة الرفيعة التي تقلدتها ورفعك الله بها على سائر البشر ، أنت ساقي الخمرة التي سقيتها لأحبائك، وأنت الذي تملأ الكاسات لمن أراد شراب محبتك، وشرابنا هو ما تعرفه من وصالك الذي يفعل بأرواح المحبين ما تفعله الخمرة بعقول الشاربين .

جئتُ بالفقرِ وحبّي مذهبي   والتَّخَلّي فيك إحدى خَلّتَي

=================================

فقد جئتك يا رسول الله مفتقرة وأنه قد بلغنا في كتاب الله الذي أنزل عليك صلى الله عليه وسلم إنما الصدقات للفقراء والمساكين) فها أنا ذا تلك الفقيرة المسكينة التي أفنت عمرها بمحبتك، لا أملك في الوجود شيئاً من حطام الدنيا، إلا أن لي رصيداً قوياً من الحب الذي شرفني الله به، فجعلته لي مذهباً ، هو المذهب والدين الذي ألقى الله عليه ، ووصالي منك وقربي من جنابك هو ما أطلبه وعين ما أصبو إليه حتى صرت أُعرف به بين الملأ ، وهو أحد أوصافي التي أصبحت أُعرف بها بين الناس .

وبقلبي ما بقلبي من هوى   وغـرام لسبا منّي الحُشَي
ولقدُ شِبْتُ وما شاخَ الهوى   ولهيبيً شبَّ والوجدُ فُتَي

================================

شاخ: وصل سن الضعف والشيخوخة، لهيبي، نار الوجد على فراق الحبيب، فتي: مصغر فتى وهو شدة القوة.

وإن في قلبي ما تعرفه من الحب الشديد والتي أُشعلت فيه نار محبتك حتى أصبحت ملازمة له لا تفارقه ولو لحظة واحدة ، فإنها قد سبت قلبي وعقلي، فإني يا رسول الله أصبحت الآن في سن الشيخوخة ، وقد قضيت هذا العمر الذي

صرمته الأيام في محبتك، وبرغم أني شبت وأصبحت شيخة هرِمة لكنِ ثَم شيء لم يتطرق إليه شيب أو شيخوخة، ألا وهو حبك في قلبي ما زالَ غضاً طرياً ، فإن الحب لا يبلى في قلوب المحبين الصادقين ولو بليت أجسادهم ،بل إن الحب يتزايد ويتضاعف بتزايد الأيام وتكرارها، فإنه العصا التي يتوكأون عليها عند كِبرهم ، وهو أنيسهم إذا عزّ الأنيس ، ورفيقهم في المسير والمقيل ، وهو عمدتهم يوم لقاء الله تعالى .

ومرادي ليس يخفى والوفا منك يُحي من طواهُ الهجرُ طَي
مسّني جدبُ وقد لظّ الظّما وكفى ما قد جرى من مَحْجَرَي

===================================

الهجر: الإعراض مس: أصاب، الجدب: القحط والمحل بعدم نزول المطر، والمقصود به هنا جدب القلوب بعدم الوصال، لظ: التهب من شدة الحرارة، الظما: العطش إلى لقاء الحبيب، المحجر: العين.

بدأت الشاعرة في تخيلها هذا بعرض حاجاتها على رسول الله ﷺ فقالت: إن مرادي يا رسول الله ليس خافياً عنك ، فإن الله قد أطلعك على قلوب الأمة أجمعها وتعرف المحب من غيره ، لا تحتاج إلى من يدلك عليه ، وقد قال الله تعالى في حقك ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾صلى الله عليه وسلمالتوبة:128) وقد عوّدتنا يا رسول الله ما هو من عادتك وطبعك وكريم خصالك التي أتحفك الله بها وجعلك على خُلُقه تعالى ، فإن ما نعرفه منك أنك لا ترد سائلاً إلا بما يطلب، فأنت الكريم المعطاء وعطاؤك ثرٌّ جزيل ، عطاؤك عطاء من لا يخشى الفاقة، عطاء من قيل فيه :

له كف ندية لو أن عشر معشارها ألقيت على بر لعاد البر أندى من البحر، وتعلم محبتنا لك وفقرنا إلى عطائك ، فبهذا صرنا متحققين منه فيحيي ما أبلاه البعد منا عن حضرتك والذي يسميه المحبون هجرا، فقد مسني يا رسول الله جدب ، والجدب هو القحط الذي يحصل في الأرض من قلة نزول المطر ، وكذلك فإن أرض قلبي قد أجدبت من طول البعد ، وقلة المدد الذي يحي الموات منها ، وزيادة على ذلك فإن العطش لرؤيتك ووصالك قد اشتد ، ويكفي من الشهود العدول على صحة دعواي ما تراه من تواصل الدموع التي لم تعد تكفي العين حتى أردفتها بالدم ، وكل ذلك شوقاً لوصلك والقرب منك .

فتداركني وكن لي شافِعاً ببلوغِ السؤلِ من مَرأى وري
وبتحقيق الرجا من فضلِهِ وبُـلوغِ القصْدِ منهُ في بُنَّي

===================================

فالغوث الغوث والمدد المدد يا رسول الله، فأعطني سؤلي واشفع لي عند الإله الكريم في قضاء حاجتي من الوصال ومواصلة الشرب الذي مننتم به على المحبين

أمثالي حتى أذهب فيضكم وعطاؤكم ما يجدونه من وصالكم والتمتع بشهود هذا الجمال الرباني، فعادوا بما يؤملونه من الري والشرب بكاساتكم الكبيرة المترعة التي لا تنضب .
واشفع لي عند ربك حتى يكرمني ويتحفني من جزيل عطائه وواسع كرمه ، وهذا العطاء الذي أطلب ليس لي وحدي ولكن أكرم يا رب أيضاً الأبناء الذين أخرجتهم مني وأصبحوا قطعة من كبدي فإنه لا سعادة لي بدون سعادتهم ، فإن الولد بضعة أبيه وأمه .

ووفا مغفـــرَةٍ شـــامـــلَةٍ لِذَوِي القُربَى ومن أسدى إلَي
وامتـــنانٍ بالرضى عن سادَتي ثُـــمَّ مِـن بعدِهُمُ عن أبـــوَي

==============================

وعُمّ يا ربُّ بهذا العطاء الجزيل من حصول المطلوب والمغفرة الشاملة لكل ما قد جنيناه على أنفسنا من الأوزار وعظيم الذنوب الأقارب منا وذوي الأرحام ، وعمّ أيضاً يا رب من أسدى إلينا معروفاً ، فإنه قد بلغنا عن نبيك ﷺ قوله صلى الله عليه وسلم من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تكافئوه فادعوا له حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه [72]) .
ومنّ يا ربنا كرماً بالرضى عن أشياخي الذين نهلت من علمهم والذين أتحفوني بهذه العلوم التي لولا فيض علمهم ما استطعت الكلام نثراً ولا نظماً ، فهم السبب الأعظم بذلك فأكرم يا رب هؤلاء العلماء الأجلة سواء منهم أسيادي في طريق التصوف أو الأشياخ الذين تلقيت عنهم علوم الشريعة المطهرة .

قُلتُ ما قُلتُ ولولا فَيْضُكُمْ مدَّني في مَدْحِكُمْ ما قلتُ شَي
والـعَطا جَمٌّ وقـصدي بـيـّنٌ وشفيعي أنتَ في الفتحِ عَلَـــي

==============================

فإني قلت ما تعلمون من هذه الأشعار التي نثرت دررها فيكم وفي مدحكم ونشر محاسنكم بين الملأ، وليكن علمكم بيناً أن هذا العلم والمدح والشعر إنما هو من فيض عطائكم وجزيل مددكم الذي أتحفتموني به إذ لولا هذا الفيض الأقدس والعطاء الجزيل الذي منحتموني إياه وأكرتموني به ما قلت في مدحكم حرفاً واحداً، فإن العلم نور وهبة من الله يهبه من يشاء من عباده ، فهو سبحانه المعطي الواهب وأنت القاسم، فعلمي منكم ومدحي فيكم ، فهو منكم وإليكم أولاً وآخراً .
خلطت الشاعرة بين المدح والطلب ، فتارة تمدح الحبيب وتظهر ذلها على أعتابه، وتارة تعرج على الطلب منهم حتى يكون طلبها أحرى وأجدر بالقبول ، وهنا واصلت الشاعرة طلبها ومدحها معاً فقالت: فعطاؤكم جزيل يكفيني ويكفي

[72] رواه ابن حبان في صحيحه 199/8 وغيره بسند صحيح .

الخلق كلهم فأنتم الذين قلتم ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ صلى الله عليه وسلمالأعراف: 156) فكل الخلق الذين تكرمتم عليهم بالإيجاد كلا شيء في بحر كرمكم الذي لا ساحل له، وجزيل عطائكم الذي لا ينفد، وقصدي منكم لا يخفى عليكم سيما وأنتم الذين تعلمون السر وأخفى ، وشفيعي في هذا الطلب حبيبكم الذي اتخذتموه واسطة بينكم وبين خلقكم، فيا رسول الله يا من جعلك الله رحمة للعالمين وأنت أمين الله على خزائنه ، فإني اتخذتك شفيعاً في طلبي وهو أن يفتح الله عليّ ما فتحه على العارفين به من معرفته ، فهذا هو قصدي قد أفصحتً عنه الآن وقد كنت لا أقبل أن أبوح به قبل هذه الساعة غيرة مني على محبتكم أن تبتذل ويتحدث عنها الناس ، فاشفع لنا يا رسول الله عند الإله العظيم فأنت الشافع المشفّع .

والفتح المقصود عند القوم أن يصل العبد إلى المرتبة الثالثة في العلم وهو حق اليقين، علماً أن مراتب العلم؛ علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فالأول من نصيب العقل، والثاني من نصيب القلب بأن يرى بنور البصيرة ما قد خفي عن العين، والثالث هو الذوق وهو من نصيب الروح، وهو المعبر عنه بمقام الإحسان الوارد في حديث جبريل عليه السلام.

وعليكَ اللـهُ صلّى متْحِفاً   بسـلامٍ يمْلأُ الأرجا شذَي
وعلى آلٍ وصَحْبٍ كُلَّما   هَيَّجَ الشَّوْقَ بُرَيْقٌ من كَـدَي
وشدا الحادي لصَبٍّ قد صبا   هَيَّ هَيّا لمليحِ الحيِّ هَي

==================================

بدأت الشاعرة بختم قصيدتها وذلك من خلال إيراد الصلاة على رسول الله، ذلك أن الابتداء بالصلاة على النبي ﷺ والانتهاء بها إنما هو من مزيد البركة فيما ابتديت به وختمت فيه، فالدعاء موقوف حتى يصلى فيه على رسول الله، والشاعرة هنا ختمت قصيدتها بالمناجاة وعرض الحاجات، ولا أنسب هنا من الصلاة على من تناجي، حتى تكون المناجاة معطرة تليق بالمناجى، ويكون الطلب أحرى بالقبول فقالت: وعليك الله صلى يا رسول الله وصلاة الله عليك كما هي عند القوم دوام التجلي عليك، ولا أقول هي رحمته المقرونة بالتعظيم بعد أن جعلك عين رحمته، فتجلّ يا الله على رسولك وحبيبك تجلياً دائماً غير منقطع، وأتحف هذا التجلي بالسلام منك عليه حتى لا يتطرق إليه ما يشوب صفا هذا التجلي ، واجعل تجليك عليه بصورة الجمال والكمال لا بتجلي الجلال، فإن الجلال قد انقضت ساعاته وانصرمت أيامه، فإنك يا رب قد علمتنا أنك قد أنزلت جبريل الأمين على رسولك محمد في آخر حياته بصورة دحية الكلبي، وتعلم أن دحية كان من أجمل العرب ، وما فعلت هذا إلا لتعلّمنا أن ما بينك وبين حبيبك إلا صورة الجمال، فبجمالك يا رب وبكمالك أدم هذا التجلي على حبيبك محمد في الدنيا والآخرة ، حتى يتعدى هذا التجلي فيصيب كل محب لك ولرسولك ، ويعم أمته كلٌّ حسب استعداده لهذا التجلي

تقول: واشمل يا ربنا في هذه الصلاة وهذا التجلي آل بيت نبيك، سواء منهم من حرمت عليهم الزكاة وهم أبناء فاطمة عليها السلام ، أو أبناء العباس وأبناء عقيل وجعفر ، أو من هم بالمعنى الأعم وهم المحبون لجنابك وجناب رسول وهم من شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة وماتوا على محبتك، وكذلك أصحاب نبيك الذين اخترتهم في سابق علمك أنهم خلفاؤه ووزراؤه وأنصاره من السابقين الأولين، وأدم يا رب عليهم هذه الصلاة كلما لمع برق من كدي تلك المنطقة التي شرفت بأن تكون في بلدك الأمين ، ورأى هذا البرق محب لك فهيج شوقه، ومعلوم أن المحب لا يهدأ له بال ولا يسكن له قلب إلا بوصال حبيبه، والشاعرة هنا علقت دوام الصلاة على أمر مستمر وهو تحريك شوق المحبين لهذا الجناب العطر إذا ما رأوا برقاً لامعاً من ثنية كداء، وهي منطقة جنوب شرق مكة عبرها رسول الله ﷺ عند فتح مكة، فقد افتتحت الشاعرة بذكر هذه المنطقة فقالت:

سعد إن جئت ثنيات اللوي   حي عني الحي من آل لؤي

فاختتمت بما به ابتدأت، وهذا دلالة على بلاغة الشاعرة وقدرتها على توظيف الأماكن فيما تريد الحديث عنه، ولا يتسنى هذا لشاعر إلا من كان على قدم البلاغة والعلم،فهي تقول: أي رب بتوالي شوق المحب إليك ودوامه على قلبه أدم هذه الصلاة ، فتصبح صلاة أبدية وتجلياً دائما على قلب رسولك غير مجذوذ.

الواو هنا في البيت الأخير عاطفة، فكما قالت في البيت السابق: كلما هيج الشوقَ بريق من كدي، قالت هنا، وكذلك يا رب أدم هذه الصلاة ما دام حادي الركب يحدو، وما دام المنشد ينشد على مسمع المشتاقين لك فيثير بهم ما قد كمن من الشوق إليك، فاجعل يا ربنا هذه الصلاة دائمة منك عليهم ما دام الأصوات الرخيمة تشدو في حبك وحب حبيبك، إذ هو مليح الحي، وعروس المملكة الربانية، ولن تخبو هذه الأصوات أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة لأنها عرس المحبين.

هذا ما قيده القلم ونطق به الفم من شوارد الفكر الذي غاص في بحر هذه القصيدة الباعونية، التي فاح نشرها وعبق ذكرها فعم الأرجاء الأردنية العجلونية، وعم شذاها فعطر كل محب لهذا الجناب النبوي العطر، فترنمت بذكرها الأفواه الزكية، وحدا بأبياتها الأصوات الشجية، في المجالس الأنسية والأماكن القدسية، فجزى الله تعالى شاعرتنا عائشة الباعونية ما جزى أولياءه من لطيف المحبة، وصبغ ذكرها بذكره حتى لا يُمدح النبي من خلال هذه القصيدة إلا وترضي عنها، وآخر الدعاء أن الحمد لمن وفق من أحب لمدح من أحب، وأعان من شاء للكتابة ما شاء في من شاء، والصلاة والسلام على شمس الوصال وعبق الجمال، أنيس المحبين وجليس العاشقين، صلاة تستغرق العد وتحيط بالحد صلاة لا انتهاء لها ولا انقضاء دون رضوانه وعلى آله ومحبيه حتى توصلهم إلى جنات وصاله .

وارض اللهم عن عبدك العاجز المعترف بالتقصير الممتلئ من أنواع الوزر والتكدير راقم هذه السطور:

عبد الله محمد عكور

الشافعي مذهباً الأشعري عقيدة الشاذلي مشرباً وطريقة

كان الله له

****

يائية الباعونية

1. سعدُ إن جئتَ ثنيّاتِ اللُّوَيْ … حيّ عني الحيَّ من آلِ لُؤيْ
2. واجرِ ذكتتري فإذا أصغوا له … صِفْ لَهُمْ مَا قَد جرى مِن مقلتَيْ
3. وبشرحِ الحالِ فانشُر ما انطوى … في سِقامِ قد طواني أيَّ طَيْ
4. في هَوى أقمار تِمٍّ نَصبوا … حُسنَهُمْ أَشراكَ صيدٍ للفُتَيْ
5. عَرَبٌ في رَبعِ قلبي نزلوا … وأقاموا في السُّوَيدا مِن حُشَيْ
6. أَخذوا عقلي وصبري نَهَبوا … واستباحوا سَلْبَ كَوني مِن يَدَيْ
7. أطلقوا دَمعي ولكن قَيَّدوا … بِهَواهُمْ عَن سِواهُم أَسْوَدَيْ
8. ذبتُ حتى كاد جسمي يختفي … عن جليسي فكأنّي رَسْمُ فَيْ
9. وَسُلُوِّي مِثْلُ صَبري مَيِّتٌ … وغرامي مثلُ جِدِّ الوجدِ حَيْ
10. وجُنوبي قد تجافتْ مَضْجَعي … وَجُفُوني قد تجافاها الكَرَيْ
11. وعَذولي ضَلَّ إذْ ظَتلَّ علَى … شَغَفي يَلحى ويَخْطي الرُّشْدَ غَيْ
12. هوِ أَعمَى وَبِأُذْنِي صَمَمٌ … عن أباطيلٍ جَتلاها مِنهُ عِيْ
13. خَلِّهِ في الجهلِ يفعلْ ما يشا … سوفَ تدري حينَ يَنزاحُ الغُطَيْ
14. قالَ لي الآسي وقد شفّ الضّنى … وتمادى الداءُ مِن فَرطِ الهُوَيْ
15. لا شِفا إلا بِترياقِ اللقا … أو بِرشفِ الشَّهدِ مِن ذاكَ اللُّمَيْ
16. آهِ وَاحرّ لهيبي في الهَوى … وبغَيرِ الوصْلِ ما لِي قَطُّ رِيْ
17. يا تُرى هل تُسعِفوني بالمنى … قبلَ مَوتي وَأَرى ذاك المُحَيْ
18. ما قَلَوْني لا وَلكنْ قد شَوَوا … بالجفا والصَّدِّ قلبي أَيَّ شَيْ
19. وَبدمعِ عَندَمِيٍ أثبتوا … أَنَّ قلبي عِندَهُمْ لا عِندَ مَيْ
20. أَظهروا كعبةَ حُسنٍ نحوَها … حَجّتِ الأرواحُ حيّاً بعتدَ حَيْ

21. زمزَمَ الحادي وقلبي طائفٌ ... بـحِمـاهُمْ وحطيمي عـمْرتَيْ

22. وَالـوَفـا فـي حُبِّـهِمْ مُـلْتَزَمي ... ومـقـامي في فـضا ذاكَ الـفُـنَيْ

23. والصفا حَالي وَمسعايَ لهُمْ ... وَلتَـــعريفي بِـهِمْ نادَيتُ حَيْ

24. وإذا ما هاد لي عيدي بهـــم ... غير بذل النفس مالي من ضحي

25. كُلَّمـا شَعشَعَ بَرقٌ في الحِمى ... كاد أن يُروي الرُّبا مِن مدمَعَيْ

26. إذا ما هبّتْ صباً مِـن نحوهِم ... بلبلَتْ لُبــي صَباباتٌ لــدَيْ

27. هيَّمَتني سَحَراً مُذْ هَينَـــمَتْ ... وغـدت تـنقلُ عن ذاكَ الشَّـذَيْ

28. يا لهـا اللهُ عَساها إنْ سَـــرتْ ... نحوَ ذاكَ الحيِّ عني أنْ تُحَـيْ

29. أودَتِ الأدواءَ بي في الحُبِّ مِنْ ... غَير قـربي مُنهــمُ مـا لـي دُوَيْ

30. بانَ عُذري وغدا مُتَّضِحـــاً ... وكمــالُ الحُسْنِ إحدى حُـجَّتَيْ

31. طَربَتْ روحي بسُكْري بالهوى ... وَبمَـــنْ أهوى فَنالَتْ سَكْــرتَيْ

32. يا لَقومي سَاعِدُوني واشْهَدوا ... بِخُـلُوصي مِن سُلَيْمَى ورُقَــيْ

33. وَلَكُمْ عِندي يـدٌ أشْكُرُهـــا ... طُولَ عُمْري إنْ رَنا طرفٌ إلَــيْ

34. غَاضَ سُلواني فَهَل مِن رَحمة ... هِيَ أَقصى القصدِ مِنْ آلِ قُصَيْ

35. ما عسى اللائمُ يُبدي في ا لهَوى ... وَجُــنُوني فِيهِ إحدَى جَنَّــتَيْ

36. وَحَبِيـبِـي قَمَرٌ مُتَّستَتِــقٌ ... في سَنَاهُ الشَّمْسُ أضحتْ كالهُبَيْ

37. ذو قَوامٍ قامَ عُذري في الهَوى ... مُــذْ تَبَدّى مِنْ ثَنِيَّاتِ اللُّــوَيْ

38. وَجَبينٍ هلَّ سَعدي مُذْ بَدى ... مُتَسـامٍ عــَنْ هِـلالٍ بِسُـــمَــيْ

39. وَلماءِ الحُسْـنِ في وَجْنَـتِـــهِ ... رَونَـقٌ يَربو عَلى وَردِ الرُّبَــيْ

40. كُـلَّ دُرٍ وَعقيقٍ دونَ مـــا ... حَازَ ذاكَ الـثَّغرُ مِنْ وَصْفٍ وَزيْ

41. وَالـلُّمى أَفديـهِ عَن مَعسولِه ... قَصرّ الشَّـهْدُ ولـم يـأتِ بِشَيْ

42. وَعبيـر المسـكِ مِـن أنفاسِـهِ ... لـم يـــزل يُروي ولم يحك الثَّرَي

43. ولعمري كل حُسْنٍ في الورى ... قـاصرٌ عن حُسْنِ جدِّ الحسنيْ ن

44. احمدَ الهادي إلى دينِ الهُدَى ... ببيانٍ مُحكَـمٍ مـن عنـــدِ حَي

45. ونـبي من قديم كـــم رَوَوا ... في عـُـلاهُ مِنْ حـــديثٍ يـا بُنَي

46. خيرُ مبعوثٍ مَحتْ أنـوارُهُ ... بصبـاحِ الرُّشْدِ عـنا ليلَ غَـــي

47. بدرُ أُفْقِ القُربِ شمسُ الإصطفا ... زينـةُ الدارَيْنِ عين ُ العالمَيْ ْن

48. وأراهُ اللــــهُ مــن آيــــاتهِ ... ولـقد كـانَ كـقابٍ مـــن قُسَـي

49. وبـهِ أُسـري على معراجـهِ ... لاختصاصٍ من ورا طُورِ النُّهَـي

50. صاحِبُ الآيِ التي عن بعضِها ... قصّـرَ العـقـلُ وأزوى أيّ زَي

51. ولـه الجـاهُ اَلـــذي لا ينبغـي ... لســواهُ يومَ تُطوى الأرضُ طي

52. وَلَكــمْ قـامتْ على تفضيلِه ... حُجَجٌ كالشمسِ ما عنها غُطَي

53. أمَّـــهُ بالرسـلِ منهـا وكـذا ... حشـــــــرُهم تحتَ لواهُ يا أخَـي

54. وإذا ما أحجموا عن رتبةٍ ... قـام فيهــا شافـعاً من غير لَـي

55. ولـهُ كمْ معجزاتٍ ظهـرت ... وتبدّى نورُها فــــي كلِّ حَي

56. معجزُ القرآنِ منها ولكم ... فيــهِ من آيِ تـــردُّ المـيْت حَي

57. سائرُ الأفهامِ عنـه حسِرت ... وتـبـــدّت مِن حَيَاها في رُدَي

58. وانشقاقُ البدرِ منهـا جهـرةً ... ومَـــردُّ الشمس من بعدِ العُشَي

59. والجمادَاتُ عليه سلّمَت ... مِثْـلَ مـا حيّاهُ ضَـــبٌّ وَظَبَي

60. ولكم عمّت جموعاً يدُهُ   بأيادٍ بعضُها شبعٌ وري
61. ولكم قد ردّ عضواً بعدما   صار مفصولاً وعيناً رأيَ عَيْ ن
62. وبيُمْنِ اللمْسِ كَمْ ضَرْعٍ همى   بحليبٍ بعد يُبْس وذَوي
63. ولكم بالرِّيقِ داءٌ قد برا   ولكم بالنّفثِ من كَسْرٍ تَهَي
64. وبنبذِ التُّربِ في وجهِ العِدا   أُلجِموا عنه وغشّاهمْ غُشَي
65. وحبا جزلاً فأضحى صيْقَلاً   ومن العُرجُونِ قد لاح الضَّوَي
66. ودعاها فاستجابت شجراً   وأتت تسعى ولم تَلْوَ لِلَي
67. وأطاعته الرّواسي مثلما   سبّحت في كفّهِ صُمُّ الحُصَي
68. وشَكَوا جدباً وباستسقائهِ   أُمطِرَ القومُ وصار الحيَّ حي
69. ودعا اللهَ تعالى ربَّه   في أُمورٍ فأُجيبت يا بُنَي
70. كنزُ علم كلُّ علم في الورى   قطرةٌ من بحرِهِ لا من سُمَي
71. فلذا لا ينطقُ إلا بالهُدى   حِكمةً موجزةً من غير عَي
72. وهو نورٌ وسراجٌ فلذا   إن مشى في الشمس لا يقفوه فَيّ
73. إن مشى في الصخرِ لانَ الصّخرُ و في رمالٍ لا يرى إثْرُ الوُطَي
74. فتفانَى عنكَ في شرعِ الهوَى   وبهِ صَرِّحْ ودعني من كُنَي
75. وتَعَشّقْ وتَمزّقْ والزَمنْ   حُبَّ طه وازْوِ حُبَّ الغيرِ زي
76. فهو محبوبٌ وغاياتُ المنى   في يديه وهو لا يبخلْ بشي
77. حُسْنُهُ بهجَةُ عيني وحُلا   ذكرِهِ الطّيِّبِ حَلْوى مسمَعَي
78. روحُ روحي سُؤلُ أربابِ النُّهَى   سِرُّ سرّي والضّيا من بَصَرَي
79. مَن لِعيني أن تُشاهدْ حُسْنَهُ   وأرى فوقَ ثراهُ شَفَتَي
80. وأُعفِّرُ في ثرى أعتابِهِ   جنةِ العشّاقِ كلتا وجنتَي
81. وأُغنّي طَرَباً في بتابه   وهنا بسطُ الوفا في قبضتَي
82. أسعَفت ألطافُ طه المصطفَى   بمرادي يا فؤادي قم تهي
83. مُدّني منه بفيضٍ شاملٍ   فالمُنى من راحتي في راحتي
84. يا رسولَ اللهِ يا خيرَ الورى   ما لقلبي عن هُيامي فيكَ لَي
85. ليس يخلو منك يا كلَّ المنُى   خاطري والحالُ إحدى حُجَّتَي
86. وبرَغمي يا حبيبي أن أُرى   لسوَى طيبَةَ أُزجي قدَمَي
87. يا حياةَ الروحِ يا رَيَّ الظّما   يا حبيبَ اللهِ يا ساقي الحُمَي يا
88. جئتُ بالفقرِ وحبّي مذهبي   والتَّخَلّي فيك إحدى خَلّتَي
89. وبقلبي ما بقلبي من هوى   وغرام لسبا منّي الحُشَي
90. ولقدُ شِبْتُ وما شاخَ الهوى   ولهيبي شبَّ والوجدُ فُتَي
91. ومرادي ليس يخفي والوفا   منك يُحي من طواهُ الهجرُ طَي
92. مسّني جدبٌ وقد لظّ الظّما   وكفى ما قد جرى من مَحْجَرَي
93. فتداركني وكن لي شافِعاً   ببلوغِ السؤلِ من مَرأى وري
94. وبتحقيقِ الرجا من فضلِهِ   وبُلوغِ القصْدِ منهُ في بُنَي
95. ووفا مغفرةٍ شاملَةٍ   لِذَوي القُربَى ومن أسدى إلَي
96. وامتنانٍ بالرضى عن سادَتي   ثُمَّ مَن بعدِهُمُ عن أبوَي
97. قُلتُ ما قُلتُ ولولا فَيْضُكُمْ   مدَّني في مَدْحِكُمْ ما قلتُ شَي
98. والعَطا جَمٌّ وقصدي بَيِّنٌ   وشفيعي أنتَ في الفتحِ عَلَي

99. وعليـــكَ اللهُ صلّى متْحِـفاً بِسّـــلامٍ يـمْـلأُ الأرجا شـُذَي
100. وعلـــى آلٍ وصَحْبٍ كُلَّـمـا هَـيَّجَ الشَّوْقَ بُرَيْقٌ من كـَـدَي
101. وشدا الحادي لصَبٍّ قد صبا هـيَّ هَيَّا لـمـليحِ الـحـيِّ هَــي

***

تم بحمد الله

الفاتحة على روح السيدة عائشة الباعونية رحمها الله



